مهندس على الطريق ،،

أمير الظل



عبد الله غالب البرغوثي

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى والدي ووالدتي أطال الله بعمرهما

إلى زوجتي وأطفالي تالا وأسامة وصفاء

إلى كل من ساعد وساهم لكي يرى هذا الكتاب النور

لفلسطين والقدس والأقصى

للقدوس والقدس والقسام

أهدي كتابي هذا لهم جميعًا ولكل من لعن الاحتلالَ

عبد الله البرغوثي

أمير الظل

مُقَدِّمَة

تثور النار إن اختنقت بالحطب   وتحرق كل من للحق اغتصب

ثرت مرةً بإذن ربي على المحتل الغاصب ، وها أنا أثور اليوم أيضاً بعون ربي على السجن والسجّان لأكتب قصتي ، قصة مقاوم قصد وجه ربه ورفع السلاح بوجه الظلم ، لعل رصاصات الحق تعيد طريق النصر والحرية .

عبر جوابي على رسالة ابنتي ، وردّي على تساؤلاتها ، لعلي أكون قد أوضحت لها ما يدور في ذهنها حول ذلك السؤال الذي تردد كثيراً : **" من أنت؟ ولم أنت؟ "** ..

ولعلي أكون عبر تجربتي المتواضعة قد ساهمتُ ولو قليلاً من خلال صفحات هذا الكتاب ومن خلال مقاومتي للمحتل بأن أشعل شمعة على درب الحرية ، فأنا أكره الظلام ؛ وأكره من يلعنون الظلام .

عبد الله غالب البرغوثي

" من زنزانة العزل الانفرادي التي ما زلت أمكث فيها منذ عام ٢٠٠٣ حتى اليوم "

رسالة من تالا ، أسامة وصفاء :

" إلى أبينا الغالي على قلوبنا ، نكتب لك هذه الرسالة بمناسبة ذكرى دخولك المعتقل ، هذه الذكرى التي قد مر عليها عشرة أعوام ، وأنت يا أبانا خلف القضبان والأسوار ، خلف القضبان داخل غرفة العزل الانفرادي لا ترى أحداً ولا تكلم أحداً .

أبانا ، بل أبي فأنا ابنتك تالا التي تكتب هذه الرسالة نيابة عن إخوتي أسامة وصفاء ، أكتب يا والدي معاتبةً ؛ حائرةً ومتسائلةً ، فأنا لا أدري إن كان يحق لي أصلاً أن أعاتبك وأسألك تلك الأسئلة التي تدور في ذهني ، ولكن حيرتي ؛ حيرتي التي دفعتني لهذا السؤال الذي لم أجد عليه إجابة من أولئك الذين من حولي ، فكل واحد منهم يجيب إجابةً مختلفةً جداً عن إجابة الآخر، رغم أن السؤال هو هو ! لم يتغير ولم يتبدل !!

أبي الغالي ، أبي الحبيب ، أعلم أن صدرك واسع وأنك تجيب على أسئلتي دائماً قبل أن أسألك أصلاً ، فأنت الأب الذي لا يتضايق من أسئلة أبنائه الصغار ، لكني اليوم قد أصبحت كبيرة ، وكبرت معي تلك الأسئلة التي ألخصها لك بسؤال واحد ؛ لعلي أجد عندك الجواب الشافي عليه ؛ وهو : **من أنت؟ من أنت يا أبي؟**

أأنت ذلك الطيب الحنون كما تقول جدتي؟ أم أنت ذلك القاسي منزوع القلب كما يقول جدي؟ هل أنت المحب العاشق الذي جاء على حصانه الأبيض ليأسر قلب أمي فتقع في حبك؟ أم أنت ذلك الذي جاء من المجهول وغادر أيضاً إلى المجهول فكسر قلب أمي وجعلها تبكي وتبكي ما إن يُذكَر اسمك أمامها ؟

قالوا عنك جبار قوي لا ترحم ، وقالوا أيضاً أنك تملك عقلين ؛ لا عقلاً واحداً مثل باقي البشر، فقالوا أنك استبدلت قلبك بعقل آخر!

ولكن ما يجري أيضاً يا والدي الحبيب أنهم أيضاً يقولون أنه لولا أن قلبك كبير وأنك حنون طيب لما وصلت إلى ما وصلت إليه ، لما قاتلت ولما عني ابتعدت ، لا أدري من أنت ، من أنت؟ أنت تلك الصورة التي كتب عليها تلك الجملة التي لا أفهم لها معنى : **" الأسير البطل"** ! أسير بطل ! كيف يصبح الأسير بطلاً ؟! أم أن السؤال هو كيف يصبح البطل أسيراً ؟!

هل أنت مقاوم بطل؟ أم أنك مجرد متهور مندفع خاض حرباً لا ناقة له بها ولا جمل ؟ قل لي بربك يا عبد الله الجمل من أنت ؟ أليس هذا هو اسمك قبل أن يصبح عبد الله البرغوثي أو عبد الله القسام ؟

من أنت؟ أنت ذلك الظل الذي لا أرى صاحبه ولكنه يمد لي يد المساعدة دون أن أطلب ، هل تعلم يا والدي الحبيب أنك الأب الوحيد الذي لاينسى ذكرى ميلاد أبنائه وذكرى ميلاد من يحب؟ كل الآباء ينسون ؛ إلا أنت فلا تنسى ، ما دمت لا تنسى لماذا غبت عنا طوال هذه الأعوام؟ ألم تكن تعلم أن من يقاتل يغيب ويبتعد عن من يحبهم ؟

والدي أجب على سؤالي من أنت؟ ولماذا تركتني طفلة صغيرة لا يتجاوز عمري الثلاثة أعوام ملقاة بسيارة تحاصرها الكلاب من كل صوب؟ لماذا تركتني في البرد القارص بعد أن غبتَ ولم أعد أراك ؟

بالله عليك يا أبي قل لي من أنت ؟ قل وأجب على أسئلتي سواء التي سألتها أم تلك التي لم أجرؤ على سؤالك إياها ، من أنت يا أمير الظل ؟ من أنت ؟ "

ابنتك المحبة تالا

❀ ❀ ❀

ابنتي الحبيبة على قلبي وعلى عقلي تالا ، وأحبتي أسامة وصفاء ، وأبي وأمي وزوجتي الغالية ، رسالتك قد وصلني قبلها وبعدها العديد من الرسائل التي تحتوي على هذا السؤال : "**من أنت** ؟ " ، وسؤال آخر أكثر تعقيداً وهو ذلك السؤال الذي تكرر كثيراً : " **لماذا أنت**؟ " .

ابنتي الحبيبة وملاكي الحارس : هذه الأسئلة والتساؤلات تحتاج إلى شخص فيلسوف لكي يجيب عليها ويشرح الأسباب ، ويوضح الأمور ليسهل عليك فهمها ، أما أنا فمجرد شخص عادي ؛ وأقل من عادي ، ويصعب علي أن أجيب على تلك الأسئلة ، ولكني سوف أقصُّ عليك قصتي وقصة حياتي ، لعلك يا ملاكي الحارس تجدين أجوبة على أسئلتك ، لعلك تستطيعين أنت يا ابنتي أن تقولي لي من أنا ، ولماذا أنا .

حبيبتي الصغيرة قد بدأت قصتي من هناك ، هناك بعيداً عن فلسطين وعن التين والزيتون ، هناك في الصحراء ، فلقد وُلدت بالكويت ، وأحببت الكويت وما زلت أحبها ، وأذكر النشيد الوطني لها وأردده :

وطني الكويت سلمت للمجد وعلى جبينك طالع السعـد

ذلك النشيد الذي ظللت أردده طوال أعوام طفولتي ، حتى جاء اليوم الذي ما عدت فيه طفلاً صغيراً ؛ فلقد كبرت فجأة ودون مقدمات ، وكان ذلك عندما اندلعت انتفاضة الحجارة في فلسطين ، عندما استشهد ابن عمي محمود ؛ وعمي إسماعيل ؛ استشهدا في فلسطين ؛ أقمنا لهما في الكويت عرساً ، عرس الشهداء !

لم أكن أعلم أن هناك أعراساً تقام للموتى ؛ للقتلى ؛ ولكني علمت أن هناك أعراساً تقام للشهداء ، من هم أولئك الشهداء؟ وكيف أصبحوا مضمخين بدمائهم إلى مثواهم ، إلى جنة الخلد ، من هم؟ لم أرهم ولم أكلمهم ؛ وحتى لم أكن أعلم عنهم أي شيء .

سألت وسألت ، وجاءني الجواب ، قالوا لي إن محمود هو ابن عمي الكبير ، وقالوا إن إسماعيل هو أصغر أعمامي ، ولقد كان الاثنان قريبين في العمر وقريبين في صداقتهما ، ببساطة لقد ألقوا الحجارة على قوات الاحتلال الصهيوني التي كانت تعيث خراباً في قريتنا فأطلقت تلك القوات عليهم وابلاً من الرصاص فاستشهدا .

قالوا لي : "اعلم أنك من هناك ؛ من فلسطين ، من قرية اسمها بيت ريما" ، وقالوا أيضاً :

"أنت فلسطيني" ، وهكذا يا ابنتي لم أعد كويتياً كما كنت أظن وكما كنت أغنّي ، بل فلسطيني ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أردد أنشودة أخرى تتحدث عني وعن فلسطين ، فلسطين الشهداء ، فلسطين الأسيرة ، كانت تلك الأنشودة تقول :

محمد جمجوم وفؤاد حجازي جازي عليهـم يا شعبي جـازي

أنشودة تتحدث عن أبطال ثلاثة هم : "عطا الزير" و "محمد جمجوم" و "فؤاد حجازي" ، أُعدموا من قِبَل القوات البريطانية ؛ تلك القوات التي نصبت لأبناء فلسطين المشانق ، وأعطت الصهاينة وعداً مشؤوماً اسمه وعد بلفور ، ذلك الحقير القذر الذي أعطى ما لا يملك أصلاً إلى من لا يستحق ، أعطى أطهر أرض – فلسطين – إلى أقذر شعب ؛ إلى الصهاينة المحتلين .

ومن هنا يا ملاكي الحارس كبرت ولم أعد طفلاً صغيراً ، كبرت وكبرت معي فكرة المقاومة ، وطرد الاحتلال ، وعقاب المحتلين على جرائمهم بحق فلسطين وحق محمود وإسماعيل وبحق كل شهيد .

كنت يا ابنتي الحبيبة و يا ملاكي الحارس أشاهد على التلفاز كيف يقوم جنود الاحتلال بتكسير عظام أطفال فلسطين ؛ أطفال الحجارة ؛ رجال الانتفاضة وصقورها ، ولذلك قررت أن أصبح قوياً ؛ قوياً جداً حتى لا يُكسر عظمي ، وحتى أدافع عن من أحبهم ، عن القدس والأقصى وعن فلسطين .

في تلك الأثناء قدر الله أن أتعرض للضرب على يد عدد من التلاميذ في المدرسة ، كانوا

أكثر وأقوى ؛ وكنت وحيداً وأضعف ، وعلى الفور انضممت لنادي الرياضة الجودو ، عند مدرب اسمه "منير سميك" ، وبدأت تدريبي بنادي الجهراء بالكويت ، كان المدرب فلسطينياً ؛ ولقد كان يدرب أيضاً فريق منظمة التحرير الفلسطينية بمدينة "حولّي" بصمت وبجد على فنون الجودو ، ولكني لم أكتف ، فلقد أردت أن أكون قوياً جداً ؛ فأضفت إلى الجودو التدريب على رياضة الملاكمة وأيضاً كمال الأجسام ؛ ولذلك كنت أمضي كل أوقاتي بعد الدراسة متنقلاً بين قاعات التدريب ، لم أكن أشارك بالمسابقات ولم أحصل على الميداليات ؛ بل كنت أشارك بالمشاجرات سواء بالمدرسة أو في الحي الذي أقطن فيه وأحصل في بعض الأحيان على الكثير من الكدمات أو الكسور .

وقد قال لي المدرب بعد تلك الأعوام : "إني سوف أدربك اليوم على الحركة الأخيرة ؛ تلك الحركة التي إن تعلمتها وأتقنتها فسوف تكون قادراً على قتل من يهاجمك ، فإياك أن تستعملها أبداً أبداً " ، وعندما سألته : **"كيف تعلمني حركة قاتلة وتريد مني أن أتقنها ولا أستعملها لا في المشاجرات ولا حتى في المباريات داخل النادي؟"** ، وهنا أجاب قائلاً : "ألستَ فلسطينياً ؟ ألا تريد تحرير بلدك؟" ، قلت : **نعم** ، قال : "إذا هناك في فلسطين وضد من احتلوا وطنك ؛ استعملها واستعمل كل ما تعلمته هنا " .

بعد ذلك بدأت مرحلة جديدة من حياتي ، فقد بدأت بالتدرب على السلاح ، هناك في الكويت في الصحراء ، أما الأهم من ذلك فهو ما كنت أعمله أثناء العطل المدرسية ؛ سواء عطلة نصف العام الدراسي أو عطلة نهاية العام الدراسي ، فلقد كنت أمضي تلك العطل منذ أن أصبح عمري اثني عشر عاماً ؛ يعني أصغر من عمرك الآن بعام واحد بالعمل في محل للأجهزة الكهربائية يملكه عمي أبو أحمد ، أو في العمل في كراج للميكانيك بعد أن كبرت بعدة أعوام ، فأنا يا ملاكي الحارس لم أمارس الرياضة القتالية حباً بها أبداً ، ولم أتعلم استعمال السلاح لأني أهوى ذلك ، فلقد كانت هوايتي تفكيك الأشياء وإعادة تركيبها مرة أخرى، ومحاولة معرفة طريقة عملها ، هذه هوايتي : الإلكترونيات والميكانيكا ، الأشياء الصغيرة والدقيقة جداً ؛ والأشياء الكبيرة والتي يملؤها الزيت والشحوم ، وهذا ما دفعني لاحقاً إلى دراسة مساق الهندسة الإلكتروميكانيكية في كوريا الجنوبية ، أما كيف وصلت إلى هناك فهي قصة أرويها لك بعد أن أكمل حكايتي بالكويت أولاً.

كنت متعلقاً بالكويت جداً ، حتى أنه لما كان والدي ووالدتي وإخوتي يذهبون لقضاء العطلة الصيفية في الأردن كنت أفضل البقاء في الكويت وحيداً ، رغم أن عمري لم يكن يتجاوز الستة عشر عاماً لكي أبقى في علمي وهوايتي التي أحب ، وهنا أقول إن الكويت ليست الصحراء أو آبار النفط ، الكويت هي الحاضنة والمدرسة التي تعلمت منها كل شيء ، فلقد كنت أتابع مجلة "العربي" ؛ تلك المجلة التي عرّفتني بالقضية الفلسطينية وحتى بالعالم أجمع ، وكنت أتابع الصحف ؛ وخاصة رسوم الفنان المبدع شديد الإبداع "ناجي العلي" ، الذي كان يرسم في الصحف الكويتية ؛ وعلى ما أذكر أنه كان يرسم في صحيفة "القبس" الكويتية ، ثم

"القبس الدولية" في لندن .

الكويت التي أنجبت فهد الأحمد الصباح الذي قاتل من أجل فلسطين في جبال عجلون في الأردن ، فالكويت هي البلد المسلم الوسطي ؛ لا المتطرف الأحمق ، فلقد تعلمت الصلاة وأداء العبادات منذ طفولتي الأولى ، كان والدي يصطحبني إلى الصلاة في المسجد كل يوم ، وحتى عندما كنت أتدرب ؛ كان التدريب يتوقف لأداء الصلاة ، وعندما كنت أعمل بالميكانيك أو الإلكترونيات فلقد كنت أوقف العمل من أجل أداء الصلاة ، فالصلاة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من أموري اليومية ، وأذكر أيضاً أن والدي كان يصطحبني لسماع خطبة الجمعة في إحدى المدن المجاورة لمنطقة الجهراء ؛ وذلك لحب والدي لخطب مشايخ الكويت .

كان والدي يردد دائماً أن صدام حسين فاجر ظالم ؛ ولذلك لم أكن أحب صدام حسين أبداً ، وخاصة عندما قرأت ما فعله بالأكراد ، وبحربه الحمقاء مع إيران ، وعندما غزا صدام الكويت ازداد كرهي له ؛ فهو محتل مثل الصهاينة اليهود لا أكثر ولا أقل ، احتل بلداً كان عوناً له؛ احتل وخرب ودمر وعاث فساداً ، وكم حمدت الله بعد أن تحررت الكويت !

بعد تحرير الكويت ، انتقلت مع أسرتي للعيش في العاصمة الأردنية عمّان ؛ حيث كان والدي يملك هناك منزلاً ، ولكن مع انتقالنا بدأت مرحلة قصيرة لكنها مهمة جداً ، فلقد كنا بعد خروجنا من الكويت إلى الأردن بحالة مادية صعبة جداً ، ولذلك ورغم أني كنت أدرس ؛ إلا أنني كنت أعمل أيضاً في أحد كراجات المدينة لعلي أساهم ولو بالقليل من مصروف البيت ، فأنا يا ملاكي الحارس يا ابنتي الجميلة أكبر إخوتي مثلك تماماً ، ولذلك تحولت هوايتي إلى عملي ؛ وحتى دراستي فلقد درست في مدرسة مهنية قسم الميكانيك ، وما أن انتهيت من دراسة الثانوية العامة حتى أدركت عدم قدرة والدي على تعليمي بالجامعة ؛ ولذلك قمت بالاستدانة من أحد أقاربي مبلغاً من المال ووعدته أن أعيد المبلغ خلال عام واحد ، ولقد قمت بافتتاح كراج خاص لي قبل أن أكمل عامي الثامن عشر !

عملت بجد دون كلل أو ملل، لكن دون فائدة ؛ فلقد كانت الأردن تمر في تلك الفترة بأوضاع اقتصادية صعبة جداً ، وبعد مرور أكثر من ستة شهور ؛ ولم يحدث أي تقدم ، ومع اقتراب موعد سداد الدين ، وموعد إيجار الكراج وهو إيجار دُفِعَ مقدّماً لمدة عام كامل ، وجدت أن الأبواب قد أغلقت بوجهي بشكل كامل .

وفي تلك الفترة كنت قوي الجسد ؛ فأنا ما زلت أتدرب على الجودو بعمّان بشكل منتظم عند نفس المدرب الذي كان يدربني في الكويت ، الكابتن "منير سميك" ، فلقد ترك هو أيضاً الكويت ليستقر في الأردن وليدرب هناك في نادي مكة الرياضي ، ولقد كنت ميكانيكياً فنياً إلكترونياً ماهراً أيضاً ؛ فلقد مزجت الهواية بالدراسة لمدة عامين بالمدرسة الصناعية ، ورغم كل

ذلك ؛ أي القوة الجسدية وقوة المعرفة ، إلا أني كنت لا أساوي شيئاً ، لا أساوي شيئاً ! وذلك لأني كنت فقيراً ؛ فقيراً ومديوناً ، هل يعقل أن تتجاوز ديوني الخمسة آلاف دولار ولم يتجاوز عمري الثامنة عشر بعد ! وهذه التجربة المريرة من العوز المالي وعدم القدرة على مساعدة والدي وإخوتي الصغار جعلتني أدرك أهمية المال .

ولذلك وقبل حلول موعد سداد الدين بعدة أشهر قررت أن أهاجر ؛ أهاجر بعيداً لعلي أحصل على فرصة أفضل ؛ ولعلي أحسن ظروفي المعيشية وأوفي بوعدي الذي قطعته على نفسي وهو إعادة الدين في موعده المحدد ، وإعالة عائلتي التي لولا ذلك المنزل الذي كنا نملكه في عمّان لكنا قد تشردنا في الطرقات ، فوالدي كان كبير السن ؛ فلقد تزوج في سن متأخرة ، وإخوتي بدؤوا يكبرون ويكبر مصروفهم ومصروف البيت .

قدر الله لي في تلك الفترة أن يكون لي صديق اسمه "أحمد " ، له قريب يعمل في كوريا الجنوبية ، وكان صديقي هذا قد قرر السفر للعمل هناك عند قريبه ، وهنا طلب مني أحمد أن أملأ له طلباً لتأشيرة الفيزا ، فهو لم يكن يجيد اللغة الإنجليزية ولا حتى العربية ، فأحمد لم يكمل تعليمه ، ولذلك قمت بملء طلب الفيزا لأحمد ؛ وطلبٍ آخر لي أنا ، وما إن جاءت الموافقة على الفيزا حتى قمت ببيع موجودات الكراج وشراء تذكرة للسفر ، وعندها أخبرت أحمد أني أريد السفر معه لكوريا ؛ فرحب بذلك أشد ترحيب وذلك لعدة أسباب ذكرها هو لي عندما صعدنا إلى الطائرة فلقد قال : " أنت يا عبد الله قوي الجسد ويدك "طرشا" فإذا حدثت معنا مشكلة نحتاج للعضلات فأنت موجود ، وإذا احتجنا لمترجم فأنت موجود " ، أما الأهم

حسب رأي أحمد فهو قوله : " إذا ما تعطلت الطائرة في الجو فأنت موجود أيضاً كي تصلحها " ولقد كان جاداً في ذلك !

قبل موعد السفر بيوم واحد أبلغت والدي عن نيتي للسفر إلى كوريا هناك ، لم يعترض بل بارك سفري وشجعني على الثبات والعمل الجاد ، فلقد كان والدي يثق بي جداً ويعلم أني لست من النوع المستهتر ، فوالدي كان يتابع عملي في الكراج وتدريبي في النادي ، كان يراقب ويتابع صامتاً ، ويكرر تلك الكلمة التي يرددها دائماً : " لقد كبرت قبل أوانك يا ابني" .

ودعت أهلي وانطلقت إلى المطار مع أحمد وأنا لا أحمل معي سوى تذكرة السفر فقط لا غير ؛ فلقد دفع أحمد أجرة التاكسي ورسوم الخروج من المطار ، أحمد كان قد خطب ابنة عمته قبل عامين من سفرنا فهو أكبر مني عمراً ، لكنه رغم كبر عمره إلا أنه كان منسجماً معي وكان إنساناً طيباً وبسيطاً جداً .

ما إن أقلعت الطائرة من مطار عمّان حتى قال لي أنه يريد العودة إلى عمّان مرة أخرى ! لقد تبدل حماسه الكبير إلى فتور وتشاؤم ! حاولت أن أغيّر رأيه لكنه أصرّ على العودة إلى عمّان رغم أنه تحدّى أهله وأهل خطيبته الذين كانوا يرفضون سفره ، ورغم كل الإصرار إلا أن ذلك الإصرار تحول إلى إصرار معاكس مُصراً على العودة وعدم السفر ، وما إن وصلت الطائرة إلى كوريا بعد مرورها بالبحرين وهونغ كونغ ، حتى أصرّ بكل ما أوتي من قوّة على العودة !

حاولت أن أحجز له تذكرة لكي يعود ؛ إلا أني لم أجد طائرة تسافر في ذلك اليوم ، فانتظرنا في المطار يومين حتى حجزت له تذكرة وأوصلته لبوابة المغادرين ليغادر عائداً إلى

عمّان دون أن يرى كوريا ! غادر هو تاركاً لي عنوان قريبه في كوريا ، وودعته أنا بعد أن قمت بعمل جنوني ؛ نعم يا ملاكي الحارس ، فلقد أرسلت مع أحمد جواز سفري وتذكرة عودتي إلى عمّان ؛ وأرسلت معه رسالة قلت فيها لوالدي أني لن أعود قبل أن أحقق ما حلم بتحقيقه ، وطلبت من أحمد إيصال الأمانة ؛ وأن يطلب من والدي الدعاء لي والاحتفاظ بجواز سفري حتى أطلبه منه !

جيوبي خالية ، فلا مال لدي ؛ ولا تذكرة للعودة ؛ ولا جواز سفر ، كل ما معي هو عنوان مكتوب على ورقة ، وإصرار بالنجاح ورغبة بالتحدي !

هنا يجب أن أقول أن أحمد قد عاد إلى عمّان لأنه كما قال لي عبر الهاتف فيما بعد أن عمته أي حماته قد عملت له عملاً عند إحدى الساحرات ، عملاً يمنع أحمد من السفر بعيداً عن خطيبته ؛ بعيداً عن بيته في عمّان ، أما أنا فإن سئلتُ عن رأيي فأقول الله أعلم بالسبب الحقيقي لعودة صديقي أحمد إلى عمّان !

❀ ❀ ❀

عدت إلى جيوبي الفارغة وأخرجت منها العنوان ، وسألت أحد موظفي الاستعلامات بالمطار ، ذلك الموظف الذي رسم لي العنوان على إحدى الخرائط الخاصة بالسياح ؛ فلقد قلت له أني أريد الذهاب ماشياً على قدميّ فرسم لي العنوان وانطلقت بعد أن أمضيتُ ليلتي نائماً بحديقة المطار ؛ نائماً على العشب الرطب مستيقظاً على بخاخات المياه التي سقت العشب صباحاً ، فاستيقظت وشربت من تلك المياه ، وبدأتُ رحلتي إلى الأمل ، الحلم الذي أصبح حقيقة .

بقيتُ طوال ثلاثة أيام وليلتين أسير في النهار وأنام في الليل ، لا آكل ولا أشرب ، لكني كنت أشرب من مياه الحدائق العامة حتى وصلت إلى العنوان ، وصلت متعباً غارقاً بمياه الأمطار ، أشعر بالحر تارةً وبالبرد تارةً أخرى ، وصلت إلى العنوان الذي لم يكن سوى عنوان مصنع لقص الأشجار في إحدى الغابات ، كان قريب أحمد قد ترك العمل بالمصنع منذ مدة طويلة وانتقل إلى مكان آخر ؛ ولكن لحسن الحظ أنه كان هناك عمال أجانب يعني عمال غير كوريين ، عمال باكستانيون مسلمون .

رحّب بي أحدهم ، وأوجد لي عملاً في نفس اليوم بمصنع مجاور ، هناك في تلك الغابة وبمصنع الأخشاب هذا عملت طوال خمسة وأربعين يوماً ، قبل أن أستلم أول راتب لي ؛ فلقد كان النظام هناك أن نعمل شهراً كاملاً وأن نترك تأميناً لمدة خمسة عشر يوماً لدى المصنع .

عملت وأنا لا أملك المال لشراء الطعام ، فلقد كنت أتناول وجبةً تُقدّم من المصنع في الساعة العاشرة وهي وجبة خفيفة جداً ، ووجبةً أخرى تُقدّم في ساعة الظهيرة للغداء ، عملت

بصمت وأتقنت ما أعمل.

كنت أدوّن الكلمات الكورية وأحفظ معانيها ؛ ولم أكن أملك المال لشراء القاموس ، لكني كنت أمتلك شيئاً آخر ، فلقد كنت أنام تلك الفترة في إحدى الغرف الملحقة بالمصنع ، وكنت بعد انتهاء العمل أحاول اقتحام جهاز الكمبيوتر الموجود في غرفة الاستقبال ؛ وبعد محاولات طويلة استطعت اقتحام ذلك الكمبيوتر ومعرفة كلمة المرور ، وبدأت من خلال ذلك الجهاز بتعلم اللغة الكورية عبر أحد مواقع الجامعات الكورية ، فأنا أجيد اللغة الإنجليزية بشكل جيد جداً ، وذلك سهّل عليّ تعلم اللغة الكورية عبر اللغة الانجليزية !!

كنت بعد ذلك أجول بحرية في الشبكة العنكبوتية التي كانت في تلك الفترة ؛ أي عام ١٩٩١م ما تزال صغيرة جداً ومحدودة أيضاً ، وأعتقد أن ذلك كان هو الدافع بالإضافة إلى الملل لكي أبدأ باقتحام المواقع الالكترونية ؛ ولكني لم أكتف بذلك أيضاً ، فلقد كنت بعد مرور ما يقارب الثلاثين يوماً على وصولي إلى كوريا وعلى عملي في المصنع ، قد اشتقت للاتصال بوالدتي ووالدي للاطمئنان عليهما وخاصة بعد عودة أحمد .

ولأنني لا أملك المال اللازم لشراء كرت هاتف الاتصال ؛ فلقد قررت أن أقتحم شبكة الاتصالات الكورية ، وخلال خمسة أو ستة أيام تمكنت من فك شيفرة الاتصالات الكورية ، فأصبحت أجري المكالمات الهاتفية بشكل مجاني طوال فترة تواجدي بكوريا ؛ أي طوال ستة أعوام ، حتى عندما تحولت الشركة إلى النظام الرقمي بدل النظام السابق ؛ استطعت أن أفك تلك الشيفرة أيضاً ، ولم أكتف بذلك بل قمت بفك شيفرة الهواتف الجوالة ؛ وهنا تحولت

الحاجة للمال إلى سبب دخولي عالماً جديداً عليّ وهو عالم (قرصنة الكمبيوتر) ؛ "الهاكرز" .

بعد أن أتممت خمسة وأربعين يوماً تسلمت راتبي وكان كبيراً جداً يعادل راتب ثماني موظفين يعملون في الأردن ؛ إلا أنني لم أصرف من ذلك المبلغ سوى القليل جداً على شراء بعض الطعام والملابس واحتفظت بالباقي ، وما إن جاء الشهر الثاني والراتب الثاني حتى كنت قد جمعت مبلغ الخمسة آلاف دولار ، وقمت على الفور بإرسالها إلى والدي مع مبلغ آخر مصروفاً للعائلة ، وهنا سددت ديوني وبدأت أرسل كل ما بقي معي من مال إلى والدي ، مما جعل وضع عائلتي يتحسن بشكل كبير جداً بحمد الله .

وهنا أقول الحمد لله ، لأني طوال فترة وجودي في كوريا كنت أحافظ على صلاتي وصومي وعبادتي بفضل الله عز وجل ، وكنت أيضاً أحافظ على إبقاء لياقتي البدنية على أحسن حال من خلال التدريب المكثف الذي كنت أمارسه بعد صلاة الفجر بشكل يومي لحين موعد العمل .

بعد عدة أشهر على هذا الحال قررت ترك العمل في قص الأشجار والمنجرة ، والتوجه للعمل بمكان أمارس فيه هوايتي أي الميكانيك ، فعملت بمصنع للصناعات البلاستيكية ، وبعد فترة أصبحت عاملاً وميكانيكياً للآلات في المصنع .

أما في أوقات ما بعد العصر فلقد أردت أن أكمل هذه الهواية في أوقات ما بعد الدراسة ، فقمت بالتسجيل في أحد معاهد الهندسة ودرست تخصص الالكتروميكانيكا؛ أي الالكترونيات والميكانيك .

وهنا يا ابنتي الحبيبة ويا ملاكي الحارس أقول لك أني كما يقال لك لم أكن أملك قلباً أبداً أبداً ، بل كنت أملك عقلين اثنين : عقل يتقن جمع المال ، وعقل آخر منصَبّ على تحدي القانون ، فلقد أصبحت قرصان كمبيوتر وقرصان شبكات الاتصالات ، ولكن الأهم هو ذلك العقل الذي خصصته لفلسطين ، فلقد تعلمت علم المتفجرات والعبوات الناسفة ؛ تعلمت ذلك من مصادره الأصلية ؛ من المواقع العسكرية الموجودة في شبكة الإنترنت ، فتعلمت الكثير وحولت تلك المعرفة إلى خبرة عملية ، فلقد كنت أمضي عطلة نهاية الأسبوع في كوريا هناك في الغابات ؛ تارةً أفجّر عبوة وتارةً أجرب مادة حارقة جديدة ، وهنا استطعت أن أدمج ما بين صناعة المواد المتفجرة وصناعة المواد الإلكترونية اللازمة لتفجير تلك المواد ، فأصبحت خبيراً بكلتا الناحيتين ، فأنا من يصنع المواد المتفجرة وأنا أيضاً من يصنع الأدوات الإلكترونية الخاصة بها .

كان ذلك صعباً جداً ومعقداً جداً ؛ لكني كنت أحبه جداً ، فهو أصبح هوايتي في بلاد الغربة كوريا، أما رياضة الجودو فلقد تطورت معي هي الأخرى؛ فلقد بدأت أتدرب بنادٍ خاص، ومزجت تدريبي على الجودو بالتدرب على التايكواندو ، فالكوريون لا يحبون رياضة الجودو لأنهم بشكل عام لا يحبون اليابانيين ، فالجودو رياضة يابانية ، واليابان كانت قد احتلت كوريا لفترة طويلة جداً ، ولذلك فالكوريون لا يحبون أي شيء يأتي من اليابان مهما كان ؛ حتى الرياضة، حتى الجودو حبيبتي لم يكونوا يحبونها فلذلك تعلمت التايكواندو ؛ فهي رياضة كورية أصلية ، فتعلمتها وبخاصة تلك المراحل الخاصة بقتال الشوارع ؛ أو ما يعرف بقتال القوات العسكرية الخاصة ، وبدأت بالتردد على النوادي المختصة بموضوع القنص على السلاح ، ورغم أنها

مكلفة جداً إلا أني استفدت منها بشكل جيد جداً .

وهنا يا ابنتي أكملت الحلقة بشكل كامل من العبوات المتفجرة إلى القنص إلى قتال التايكواندو ؛ قتال القوات الخاصة ، أما إن سألتني عن دافعي لذلك كله فأقول لك أن الدافع كان جدتك ؛ أمي ، ففي تلك الفترة كانت الانتفاضة قد شارفت على الانتهاء (انتفاضة الحجارة) ، وكان بلال ابن عمي الذي تربى معي في الكويت قد سافر مع أهله إلى فلسطين ؛ فقد كان يملك هوية فلسطينية ، أما أنا وأهلي فلم نكن نملك تلك الهوية ولذلك بقينا في عمّان .

في فلسطين أصيب بلال ابن عمي وصديقي والناشط بكتائب عز الدين القسام ، أصيب برصاصة في بطنه أفقدته إحدى كليتيه ، مكث على إثرها في المستشفى فترة طويلة جداً ، ولأن الاتصالات كانت مقطوعة بين الدول العربية وبين فلسطين المحتلة فلقد كنت حلقة الوصل بين أبناء عائلة البرغوثي وبخاصة أمي ؛ وأعمامي بعمّان ، وبين فلسطين المحتلة ، ولذلك كنت أتابع أخبار بلال المصاب الذي كاد أن يستشهد وكدت أن أفتح له بيت عرس للشهادة في كوريا ، بلال كان قد فقد ابن عمه وعمه شهداء في بداية الانتفاضة الأولى ، وها أنا أكاد أفقده في نهاية نفس الانتفاضة ، فكان ذلك هو دافعي الذي حولني أول مرة من طفل إلى شاب مصمم على مقاومة الاحتلال ، وهو أيضاً ما دفعني بعد ذلك لأصبح رجلاً لا هدف له سوى مقاومة ذلك الاحتلال ، فالاحتلال هو سبب تشرد عائلتي ، وهو أيضاً سبب فقري ، فلو كنت أحيا في فلسطين لما كنت مشرداً فقيراً لاجئاً أو نازحاً في إحدى مخيمات الشتات .

وهنا لا أتحدث عني أنا عبد الله البرغوثي ؛ بل عن كل فلسطيني تشرد وعاش مأساة المجتمعات بالشتات وبالغربة ، كان كرهي للاحتلال يكبر ويكبر ، فلقد تركت العمل بمصنع البلاستيك وأصبحت أعمل مترجماً للغة الكورية بإحدى السفارات العربية ، وأصبحت أتاجر بالسيارات المستعملة عبر تصديرها للأردن واليمن ، أصبحت ثرياً وأصبح لي عقلان ؛ لكنني بلا قلب ، قلب يحب ويعشق ؛ رغم أن الفتيات كنَّ يطاردنني ، وكنَّ يسبّبنَ لي الحرج الشديد ، وذلك لأني كنت أصدهنّ عني بشتى الوسائل والسبل ، واللهِ إن صدّ الفتاة أصعب ألف مرة من استمالتها .

ولذلك قررت أن أتزوج ، أتزوج بلا حب وبلا مشاعر ، فتزوجت فتاة كورية كانت تدرس الآداب والفنون الجميلة ، تزوجتها وبقيتُ على حالي أعمل وأتدرب على هواياتي التي أحب ؛ هواياتي التي أقسمت أن تكون وسيلتي لتحرير بلادي ؛ لتحرير القدس والأقصى ؛ لتحرير الإنسان من جبروت الاحتلال .

لم يشأ الله أن تبقى الأمور على حالها فلقد اندلعت مواجهات بين طلبة جامعة سيؤول وبين قوات الشرطة الكورية على خلفية اغتصاب عدد من الجنود الأمريكيين فتاةً كورية ، فشاركت بتلك الصدامات وبدأت بإلقاء قنابل المولوتوف الحارقة ، فاعتقلت ؛ ولولا تدخل السفير اليمني لما خرجت من المعتقل ، وتم إبعادي إلى الأردن مكبّلاً بالقيود ، لقد بقيت طوال الرحلة مكبل اليدين والقدمين حتى وصلت إلى عمّان .

ولقد كانت زوجتي الكورية "مي سن أوكي" أسميتها أنا "إسراء" قد وصلت قبلي إلى

عمّان ، وتم الحجز على ما كنت أملكه من مال في البنوك الكورية ما يقارب العامين ، ولذلك فرغم ما أملكه من مال في البنك إلا أني عدت فقيراً مرة أخرى ، عدت بلا مال كما سافرتُ !

يشهد الله أني وصلت إلى عمّان ولم يكن معي قرش واحد ، هناك كان صديقي "أحمد شوياش" ينتظرني مع زوجتي ووالدي ووالدتي ليأخذني بسيارته إلى منزل أهلي ، أحمد كان قد تزوج وأنجب عدة أطفال ، أما أنا فلم تكن زوجتي "مي سن" قد أنجبت ، فلقد كانت تعاني من مشكلة في الإنجاب ، وبعد عدة أعوام من المحاولة في كوريا وفي عمّان استمرت ستة أعوام وبسبب الضغوط الكبيرة التي مورست عليّ من قبل من هم حولي باستثناء أمي وأبي ؛ فهما لم يضغطا علي أبداً أبداً في هذا الموضوع ، أما خالاتي فلم يقصّرنَ بالضغط عليّ وحتى بالضغط على أمي .

بعد مرور عامين استطعت عن طريق السفارة الكورية في عمّان أن أحصل على كل ما كنت أملكه في كوريا من أموال ؛ وأن أبدأ عدة أعمال ناجحة في عمّان ؛ فاستطعت أن أمتلك مسكني الخاص وسيارة ، وكنت في تلك الفترة أحيا وأعيش ببحبوحة كاملة ، مما كثف الضغوط علي لإيجاد حل لمشكلة عدم إنجاب زوجتي ، فقررت أن أتزوج عليها ، ويشهد الله أني لم أقدم علىهذه الخطوة إلا بعد أن عجزت عن إيجاد علاج لها ، فلقد كنت محتاجاً إلى الأبناء والبنات ليكملوا فرحتي .

في تلك الفترة كنت قد تجاوزت الخامسة والعشرين ، حاولت أن أقنع "مي سن" إلا أنها رفضت ذلك بشكل قاطع ؛ وكانت تلك هي المرة الأولى والوحيدة طوال فترة زواجنا التي

امتدت ما يقارب ستة أعوام لا ترفض لي طلباً رغم تفهمها للأسباب ، إلا أنها رفضت ! فـ "مي سن" كانت تعتبرني جزءاً منها لا يمكنها الاستغناء عني أبداً ، فعندما كنت أتدرب في النادي كانت ترافقني إلى النادي وتجلس على أحد المقاعد صامتة وتراقبني ، كانت دائماً حولي ومعي تعد لي أفضل وأجود الطعام ، تسهر على راحتي وترعاني وكأني ابنها أو أبوها الكبير ، كانت تحبني ؛ نعم كانت تحبني جداً ؛ بل تحبني أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا ، فلقد قالت لي كيف أستطيع أن أقتسم دنياي مع زوجة أخرى ، أما أنا فلا أدري إن كنت أحبها ، فكما قلتُ ؛ لم أكن أملك قلباً أصلاً لأحب ، لكنني تعودت عليها وتعودت على وجودها في حياتي ، فهي زوجة صالحة هادئة مطيعة ، وأنا لم أقصر معها بأي شيء طوال فترة زواجنا ، فهي كانت ترى أنه لا يوجد أي اهتمام عندي بالنساء ، فكل اهتمامي محصور بالعمل والتدرب ، السر الوحيد الذي كنت أخفيه عنها هو هوايتي بصناعة العبوات الناسفة ، **فتلك الهواية كانت سرية جداً ، كانت سراً مقدساً لم أشرك به أحداً طوال تلك الفترة .**

هي رفضت أن أتزوج عليها وأنا أصررت ؛ فانفصلنا ، وكان هذا الانفصال غريباً ؛ غريباً جداً ؛ انفصلنا كأصدقاء ! حتى أني ذهبت إلى أحد محلات المجوهرات واشتريت لها عدة أطقم من الذهب ومن الملابس ومن الهدايا لوالدتها ووالدها ، وأوصلتها إلى المطار مودعاً إياها حزيناً على الفراق ، بقيتُ على هذا الحال عدة أشهر لا أكلم أحداً ولا أطيق أحداً ، أمضي وقتي في العمل ؛ العمل ولا شيء سوى العمل ؛ حتى فلسطين ! لم أكن بشوق لها ! بل لم أكن أبالي بأخبارها أبداً ! أما سبب ذلك فهو دخول سلطة الفساد والإفساد سلطة أوسلو ، تلك السلطة التي تضم مجموعةً من الفاسدين القذرين المرتشين ، أولئك اللصوص الذين لم يكتفوا بأن

سرقوا مال الثورة والثوّار ؛ بل سرقوا دماء شهداء الانتفاضة الأولى ؛ انتفاضة الحجارة ، فباعوا دماء الشهداء من أجل أن يعودوا بفسادهم إلى فلسطين ، يعودوا ليدنسوها .

صببت اهتمامي على أعمالي وتجارتي التي بدأت تكبر ؛ فأصبحت لا أدخل بيتي إلا من أجل النوم ، فكل وقتي في العمل طوال أيام الأسبوع السبع ، كنت حزيناً بل تائهاً نوعاً ما ؛ تائهاً لأنني لا أعلم ماذا أفعل بموضوع الزواج ، فأنا كنت أعيش حياة سعيدة جداً مع زوجتي السابقة، رغم عدم حبي لها ، كنت أرى من هم حولي من أخوال وأعمام وأصدقاء ؛ لِمَ لا يعيش أحد منهم بمثل تلك السعادة التي عشتها ؟! بل إن كثيراً منهم كانوا تعساء ! رغم أن عندهم الكثير من الأولاد ! فلقد كنت أخشى أن أتزوج فأصبح واحداً مثلهم ، أخشى أن تصبح زوجتي هي القيد الذي يقيدني ، ولذلك قررت أن أسافر إلى إسبانيا ؛ برشلونة تحديداً ، حيث يعيش ابن خالي وهو يحمل الجنسية الإسبانية ، وهو أيضاً صديق ورفيق لي .

❀ ❀ ❀

في تلك الفترة بدأت بإعداد الأوراق اللازمة للسفر، وبدأت أنهي أعمالي في الأردن ، حتى جاءت العاصفة ؛ بل حتى التسونامي الذي لا يمكن لأحد الصمود بوجهه ؛ إنها أمي ؛ أمي الهادئة الطيبة الحنونة التي تبكي إذا ما شاهدت مشهداً حزيناً على التلفاز ! أمي أصبحت عاصفة هوجاء بكل ما تحمل الكلمة من معنى !

فقد علمَت عن طريق الصدفة من زوجة خالي أني أرتب للسفر عند ابنها في إسبانيا ، فجن جنونها ، فذهبَت إلى منزلي الذي لم تكن قد دخلته منذ طلاقي للكورية فوجَدَت أن منزلي على حاله لم يتغير عليه شيء أبداً ، فصور الكورية تملأ المنزل ؛ وملابسها أو ما بقي من تلك الملابس تملأ الخزائن ، وجدَت كل شيء على حاله ، وكنت بعملي فاراً من تلك الذكريات ، وهنا قامت العاصفة ! فبدأت أمي بجمع كل ما يمتّ للكورية بصلة ؛ الصور الملابس وحتى الطعام الكوري ؛ البهارات الكورية ؛ الكتب الكورية ؛ وأشرطة الفيديو الكورية والأجنبية ؛ حتى ألبوم صور الزواج ، جمعت كل ذلك في أكياس وألقتها في القمامة !

عدت بعد منتصف الليل لأجد أمي تنتظرني في البيت ؛ البيت الذي لم أعرفه عندما دخلته فلقد حولته إلى بيت فلسطيني أصيل ، تملأ الجدران صور القدس وخرائط فلسطين الخشبية ، تلك الخرائط الخشبية التي كنت أصنعها قبل أن أسافر إلى كوريا ، فلقد كنت بعد عودتي من الدراسة والعمل أدخل إلى غرفتي لأصنع مجسمات تجسد القدس وتجسد خارطة فلسطين ؛ وكنت أوزع تلك المجسمات على منازل أخواتي وأعمامي وأصدقائي ، لم تكن جميلة ولكنها كانت فلسطين أصيلة ؛ تصنع من خشب الزيتون ويصنعها عاشق لفلسطين ، ومحب

للقدس .

نظرت حولي فلم أجد الماضي القريب ؛ لم أجد كوريا ، بل وجدت الماضي البعيد فلسطين ، وجدتها معلقة على جدران منزلي ، لكني لم أجد نفسي ، لم أجد عبد الله الجمل ، حتى بدلة الجودو الخاصة بي لم أجدها ، فقد استعملتها أمي كممسحة ووضعتها على الباب الخارجي ! وعندما سألتها قالت لي : " إنها قديمة جداً ، اشترِ غيرها ، بل لا تشترِ غيرها ، اسمع يا عبد الله ، أقسم بالله العظيم أني سوف أغضب عليك ولن أرضى أبداً ، وليشهدْ ربي عليّ إن لم تمتنع عن السفر وإن لم تتزوج فوراً فسأغضب عليك ، قل لي الآن ما هي مواصفات الزوجة التي تناسبك؟ قل ولا تخشَ ، اذكر مواصفاتها وأنا سوف أجدها لك ، كل ما عليك أن تقول وأن تنسى الكورية ، فأنا أيضاً كنت أحب الكورية ، فلقد كانت بمثابة ابنة لي ، كانت طيبة وحنونة ، لكن هذا قدرها ، قل لي يا ولدي ما هي المواصفات ولا توجع قلبي " .

كنت أعلم أن قلب أمي مريض ؛ بل مريض جداً ، فلقد أجرت قبل فترة عملية قلبية ، أمي التي تقول أنها سوف تغضب عليّ إن لم أمتنع عن السفر وإن لم أتزوج !! آه يا أمي ، أليست الجنة تحت قدميك ؟! فكيف سوف أقبل لنفسي أن أغضبك ؟! أماه لا تغضبي مني ، أماه لا تغضبي علي ، فأنا المطيع فارضي عليّ ، وارضي على ما قدمته يداي .

صمتّ قليلاً وقلت : **"حسناً لن أسافر"** ، فنظرت إليَّ وقالت : "ماذا عن الزواج ؟" ، قلت : **"نؤجله قليلاً حتى .. "** ، قالت : "حتى ماذا ؟ حتى تنسى يا ولدي؟ لا يناسبك إلا الزواج" ، قلت : **"حسناً ، لكن حسب شروطي ، أولاً : أريدها من هناك ؛ من فلسطين ، ثانياً :**

أريدها من عائلتنا ؛ برغوثيّة أباً عن جد ، ثالثاً : أريدها متعلمة في مجال تربية الأطفال ، فأنا لا خبرة لي ولا جلد عندي على الأطفال ، رابعاً : لا أريدها أن تعمل ، فأنا والأطفال سنكون عملها وشغلها الشاغل ، خامساً وهو الأهم : أريد من أبيها أن يكون هو رجل المنزل لا أمها ، فأنا لا أريد زوجة قوية تحول حياتي إلى جحيم من المشاكل ؛ والسلام ختام " !

نظرت لي أمي وقالت : "شقراء .. بيضاء .. طويلة .. ممتلئة .. جميلة ، ألا يوجد شيء من ذلك؟! " ، فضحكت وقلت : **"لا أبداً أبداً ، فأنا يا أمي كنت حزيناً في بداية طلاقي للكورية على الكورية، ولكن فيما بعد أصبحت حزيناً على نفس الأشياء، أخاف أن لا أجد فتاة مثلها"** .

وهذا هو سبب رغبتي بالسفر للخارج حتى أتعرف على فتاة أعرفها وأفهمها ثم أتزوجها ، أما هنا بعمّان فهذا صعب علي ؛ أو بالأحرى أنا لا أريده ، فلم أجد في عمّان من تناسبني بعد الكورية .

تركتني والدتي وعادت إلى المنزل ، والدي لم يكن هناك بل كان في فلسطين ، فلقد قرر والدي منذ مدة أن يزور فلسطين لرؤية الأهل والأقارب ، ولكنه بعد ذلك قرر أن يطيل زيارته لفلسطين لرعاية أراضيه التي ورثها عن جدي .

ولا أدري أكان وجود والدي في فلسطين في تلك الفترة من سوء حظي أو من حسنه ، فبمجرد أن اتصلت أمي بأبي في تلك الليلة حتى وجدتُ أمي تقف على رأسي في الصباح الباكر لتوقظني وتقول لي أنها وجدت لي العروس المناسبة ! بالله يا أمي ! خلال أقل من خمس أو ست ساعات وجدتِ عروساً بمواصفاتي التي كنت أظن أنها تعجيزية ؟! فلقد تركت أمي منزلي

الساعة الثانية ليلاً وعادت إليّ الساعة السابعة صباحاً ، فمنزلي ومنزل والدي في نفس العمارة ، أمي وجدت لي عروساً ، قلت : **"حسناً"** ، قالت : "أعطني جواز سفرك واذهب به لتحصل على فيزا لكي تسافر إلى فلسطين" .

قلت وما زال النعاس يطاردني : **"أتريدين جواز السفر أم ماذا ؟"** ، قالت : "لا أريد جواز السفر ، أريد أن تذهب الآن لتحصل على فيزا وتسافر إلى العروس ، هناك في فلسطين" .

بالله سوف أذهب لفلسطين التي لم أعد أحبها ! ألم أقل في إحدى الأيام عندما سئلتُ عن حال فلسطين بعد دخول السلطة :

معتوهة مجنونة تلك البلاد ظُلم قتل وبيوت الحداد

عاثوا بها خراباً واستبداداً قتلوا الأم والطفل الوليد

هذه فلسطين التي لا أحب ، فلسطين التي لا أريد ، كيف أذهب لفلسطين التي ما عدت أحب ، لكي أبحث عن فتاة أحب !! أعني يا الله ..

ما هي إلا عدة أيام حتى حصلت على تأشيرة للزيارة ، ودّعت أمي وقلت لها أني ذاهب في رحلة مع أصدقائي وبعد عودتي سوف أذهب إلى فلسطين ، لم أذهب برحلة خارج فلسطين، بل ذهبت برحلة إلى فلسطين ، فلقد كان لي صديق ، وهو تاجر مقدسي ثري انتظرني هناك على المعبر ، أو كما يسمونه على الجسر ، عبرت الجسر إلى فلسطين ، لكنني لم أرَ فلسطين بل رأيت أعلام الصهاينة تملأ أرجاء المكان ، وصلت متأخراً رغم أني خرجت مبكراً ؛ فلقد استوقفني المحتلون ليخضعونني للاستجواب عن أحوالي وعن ماذا كنت أعمل ، وبخاصة أنها أول زيارة

لي لفلسطين ، كانوا يتحدثون معي باللغة العربية المكسرة نوعاً ما ، فرفضت أن أجيب بالعربية ، وبدأت أتحدث بالإنجليزية مما جعلهم يحضرون مترجماً للغة الإنجليزية ، ألا يكفي أنهم احتلوا أرضي وقدسي ويريدون أن يحتلوا لغتي؟ سوف أتحدث لكم بلغة ذلك الوغد الحقير بلفور الذي مكنكم عبر وعده المشؤوم من الحصول على أرضنا المباركة ، لكنه لن يمكّنكم من الحصول على لغتي ، حتى أن المترجم حاول أن يتحدث باللغة العربية إلا أني لم أنطق حرفاً واحداً بتلك اللغة وقلت له : **"إن كانت اللغة الإنجليزية صعبة عليك ، ابحث عن مترجم للغة الكورية"** ، غضب هو ، أما أنا فلم أغضب بل كنت سعيداً وسعيداً جداً لأني أغضبته ، فلقد شعر بالإهانة ، أمضيت عدة ساعات حتى جاء المساء ؛ وعندها وبدون مقدمات أعطوني جواز سفري وقالوا لي : "اعبر" ، فعبرت إلى فلسطين .

قال لي صديقي : "مرحباً لقد تأخرت ، حصل خير ، شو رأيك تروح على فيلتنا التي بأريحا فهي قريبة جداً ؟ خمس دقائق من هنا "، لم أتكلم واكتفيت بهز رأسي بالموافقة .

فيلا جميلة جداً ، ومسبح كبير وأشجار فاكهة رائعة ، هناك أمضيت ليلتي الأولى في أريحا ، أريحا وأي أريحا رأيتُ ، طلبت من صديقي أن يصطحبني بجولة داخل مدينة أريحا ، أريحا **"عزة أوسلو"** ! رأيت فيها قرية مهجورة محرومة من الحداثة ؛ قرية لا أكثر ، فلم تكن أريحا مدينة أبداً، رأيت فيها قطيعاً من عساكر سلطة أوسلو ، قطيعاً يقوده ذئب !

بعد ذلك عدنا إلى الفيلا فطلب مني صديقي أن أغير ملابسي وأن أرتدي أجملها ، بل أغلاها ثمناً ، قبل أن أسأله عن السبب قال : "إياك أن تسأل ، بالله عليك يا عبد الله أن تفعل ما

أطلبه منك" ، فعلاً ما هي إلا عدة دقائق وكنت أرتدي إحدى بدلي ، تلك البدل التي كنت أفصلها هناك في كوريا ، فبعد أن لم أكن أملك ثمن الطعام والمواصلات عندما وصلت إلى كوريا ؛ عندما مشيتُ من المطار إلى غابة الأشجار ، أصبحت ثرياً أقوم بتفصيل بدلاتي وقمصاني ، حتى أني والله كنت أفصل تلك "البلايز" التي ترتدى تحت القمصان ، كنت أُفصل ربطات العنق من الحرير الصيني الفاخر .

ارتديت إحدى تلك البدل وصعدت سيارة صديقي ؛ تلك السيارة التي لايقل ثمنها عن نصف مليون ، صعدت وصعد هو أيضاً ، فقاد السيارة عدة دقائق ، وصلنا إلى فندق فخم جداً جداً ، في البداية لم أصدق مثل وجود هذا الفندق في مدينة أريحا ؛ أقصد في قرية أريحا ، لكن الفندق كان ضخماً وفخماً ، وبما أني أحمل جواز سفر أجنبي ؛ وبما أن صديقي يملك هوية مقدسية فلقد دخلنا هناك دخول الفاتحين ، وما هي إلا عدة دقائق حتى علمت أني في كازينو أريحا !! في ملهى ليلي ومرتع للقمار والفساد ! رأيت ذلك بأم عيني ، كازينو في أريحا ! قمة الفساد والإفساد في أول مدينة تسيطر عليها السلطة !!

قلت في نفسي حسبي الله ، حسبي الله ونعم الوكيل ، قلت الحمد لله أن ذلك الكاتب الفلسطيني "مريد البرغوثي" الذي كتب كتاب (رأيت رام الله) لم يدخل إلى هنا ، لم يشاهد ما شاهدته في ذلك الوكر ، لم يكن القمار ولا العاهرات ؛ إنما العاهرون رجال جهاز الأمن الوقائي ؛ رجال جبريل الرجوب الذين يتولون حراسة الكازينو والإشراف الأمني عليه ، فلقد كلف عرفات بطل الأبطال جبريل الرجوب بتشكيل جهاز تحت اسم "جهاز الأمن الوقائي" ، لا

اختصاص له سوى حماية الصهاينة من المقاومة وحماية الفاسدين من الثائرين !

ظن صديقي أني لن أطيل السهر هناك ، ولكنه كان مخطئاً فلقد أطلتُ السهر ، ليس بلعب القمار ؛ ولا مراقصة العاهرات ، وإنما واصلت السهر موجهاً لصديقي السؤال تلو السؤال عما يدور هنا في الكازينو وهناك في رام الله وغزة .

قبل الفجر عدنا إلى الفيلا ، فوضعت حقائبي في السيارة وانطلقنا لنصلي في الأقصى ، انطلقنا من الكازينو وكر فساد السلطة إلى القدس المحتلة ، ما إن وصلت هناك حتى عادت لي روحي وعادت الحياة تدب في جسدي من جديد أصبحت حياً ؛ حياً أُرزَق ، في القدس عادت لي ذاكرتي وحبي لفلسطين ورغبتي في القتال وعقاب المحتل .

هناك يا ابنتي الحبيبة هناك يا ملاكي الحارس ، شعرت برغبة بالحياة ، ليس للقدس وصف؛ رائحتها جميلة ، فلقد مررنا على مخبز يصنع الكعك المقدسي ، فاشترينا وأكلنا بينما كنا نتجول في أزقة القدس ، بعد أن عبرنا أسوارها أكلت الكعك ؛ فلقد كنت جائعاً فلم آكل هناك في وكر الفساد بالكازينو ، ولم أشرب حتى الماء ، رفضت أن أدنس جسدي بطعامهم ومائهم ، أما كعك القدس فوالله كان أحلى وأروع ما أكلته طوال عمري ، فرغم أني كنت أتناول الطعام في أفخم المطاعم في كوريا وعمّان ورغم حبي لطعام أمي لكنني أقول : **"لا شيء يعلو على كعك القدس ، يبقى قدساً لا يستطيع أحد أن يدنسه ، فهو الأقصى المبارك به وحوله "** .

كان ذلك اليوم يا ابنتي هو صباح يوم الجمعة ، فطلبت من صديقي أن يتركني أمضي يومي بالمدينة ، وقلت له أننا سوف نعود إلى منزله الثاني الموجود في أحد أحياء القدس بعد الصلاة ، ألححتُ عليه فوافق ، ودّعته على أمل أن ألقاه بعد الصلاة عند باب العامود ، فبدأت أتجول في ساحات القدس ثم في أزقة القدس ، تلك القدس التي أحبها والتي طالما حلمت بأن أصلي فيها ، رأيت المستوطنين ؛ رأيت المحتلين ؛ رأيت الأم الفلسطينية ؛ رأيت القدس ، رغم كل غضبي على المحتلين إلا أن غضبي على السلطة والفساد والإفساد كان أكبر وأعظم !

بدأت أبيات الشّعر في تلك الجولة المقدسية تحوم حولي كأنها سرب من الصقور ، فقلت الأبيات التالية ، لا أدري أهي شعر أم أي شيء آخر ! أظن أن المشاعر أصبحت كلمات لا أكثر ولا أقل ! فأنا يا ابنتي لست شاعراً ، وحتى أني لا أخفيك سراً إن قلت لك أني لا أحب الشعر أصلاً ، قلتُ :

في القدس ما عاد للانتظار مكان * في القدس ما عاد بالمكان إنسان**

في القدس غرست أنياب الطغيان * في القدس غرس الصهاينة والاستيطان**

في القـدس ما عاد للحجارة أثمـان * في القدس ما عاد يسمع صوت الأذان**

في القـدس غرس المحتـل الحزن * في القدس غرس قاطعو الزيتون**

في القـدس ما عـاد للقبـاب لمعان * في القدس ما عاد حي سلوان**

في القدس غـرس الظلام والجنون * في القدس غرس عطش الظمآن**

في القدس مـا عاد زيت وزيتون * في القدس ما عاد المصلون يأمون**

في القدس غرس ظلم بلا قانون * في القدس غرس قضاة ظالمون**

في القدس ما عاد يطحن طحين *** في القدس ما عاد عنب ورمان

في القدس غرس الكره لا الغفران *** في القدس غرس الجهل والطغيان

في القدس ما عاد هناك أديان *** في القدس ما عاد هناك مصلون

في القدس غرس أعداء غيلان *** في القدس غرس وحش مجنون

في القدس ما عاد الأبيض لوناً *** في القدس ما عاد بالسماء ألوان

في القدس غرس قلب حزين *** في القدس غرس أعمى بلا عيون

في القدس ما عاد للمكان تكوين *** في القدس ما عاد يقرؤ القـــرآن

في القدس غرس الجن والجان *** في القدس غرس من الكفر دان

في القدس ما عاد هناك فلسطينيون *** في القدس ما عاد سوى بني صهيون

في القدس غرس جثمان المجاهدين *** في القدس غرس القيد بأيدي المأسورين

قلت تلك الأبيات يا ابنتي الحبيبة ويا ملاكي الحارس بعد أن صليتُ في القدس ، فقد سمح لي بالصلاة في الأقصى لأني أحمل جواز سفر أجنبي ؛ ولم يسمح للفلسطينيين الشباب بالدخول للصلاة ، قلت تلك الكلمات بعد أن رأيت أول شهيد يصلى عليه ، شهيد ارتقى للعلا على يد مستوطن محتل قام بطعنه في إحدى شوارع القدس ، فصلوا عليه وصليتُ ، وكبروا وهللوا فكبَّرتُ وهللتُ ، قلت الله أكبر الله أكبر ، ولكن أحدهم قال جملة أصبحت هي محور حياتي القادمة ؛ قال ذلك الفتى : **" الانتقام الانتقام ؛ يا كتائب القسّام ، الانتقام الانتقام ؛ يا كتائب القسّام "** ، فكررت من بعده وكرر كل من كانوا هناك ، غضبتُ وعشقتُ وصليتُ وذقت

لأول مرة الحب ! فلقد أحببت القدس وقبة الصخرة المشرفة من أول نظرة ! بل عشقتها من أول كعكة !!

تأخرت على صديقي ، لكنه بقي ينتظرني عند باب العامود ؛ إحدى بوابات القدس الشريف ، كان قلقاً بسبب حادثة استشهاد الشاب المقدسي ، كان قلقاً علي ؛ لكني كنت قلقاً على فلسطين ، ذهبنا إلى منزله الكائن في إحدى ضواحي القدس ، فتناولنا الطعام ؛ وبعد ذلك طلبت منه أن يتركني لأنام ، فأنا لم أكن قد نمت منذ ليلة البارحة .

نمت حتى المساء ، وفي المساء أخذني لزيارة بيت لحم ، فتجولت فيها وفي كنيسة الميلاد وأضأت شمعةً هناك على المذبح ، فالميلاد مثل القدس ؛ والقدس مثل الميلاد عندي ، بعد ذلك عدنا باتجاه الخليل ؛ وأمضينا ليلتنا هناك عند أحد أصدقائنا .

بقيتُ طوال فترة السهرة أسأل عن أحوال فلسطين وأحوال الخليل ؛ خليل الرحمن ، عن قصة ذلك المستوطن الذي قتل المصلين في الحرم الإبراهيمي الشريف ، فقصوا عليّ القصة .

أهم ما قالوا لم يكن عن القاتل الذي قتل شهداءنا في تلك المجزرة البشعة وتلك الجريمة الدنيئة ؛ بل كان عن ذلك المقاوم المهندس يحيى عياش، ذلك المهندس القسّامي الذي ثأر وعاقب الصهاينة من خلال عملياته الاستشهادية ، ومن خلال مقاومته للمحتلين المستوطنين ، **لقد أحببت يحيى عياش مثلما أحببت القدس تماماً ، فعياش ذلك المهندس القسامي أعاد لي من خلال حديثهم عنه روح المقاومة وروح التصدي للظلم والطغيان .**

في الصباح الباكر ذهبنا إلى مدينة رام الله لكني وجدتها نائمة ، ظننت أني سوف أرى المظاهرات تخرج ضد الاحتلال بسبب استشهاد الشاب المهندس ، لكني لم أرَ سوى قطيع أغنام الأجهزة الأمنية ، أجهزة أوسلو التي تمنع الناس من الخروج للتظاهر ضد الاحتلال ونصرةً للشهيد .

وهنا يا ابنتي الجميلة ويا ملاكي الحارس قلت معاتباً مدينة رام الله وراثياً حالها :

رام الله قومي استيقظي أرجوك * وأيقـظـي كل من أحبــوك**

أحزينـــة أنــت فأبكـوك * على الشهـداء الذين ودعــوك**

وتحالفوا مع المحتل فبالظهر طعنوك * رام الله قومي استيقظي أرجوك**

بعد أن تجولت قليلاً في مدينة رام الله ، ضاق صدري بمواكب الحراسات الفلسطينية التي تحرس كبار الشخصيات وهي تجول وتصول في المدينة المسلوبة المنهوبة من قِبَلِهم ، ألا يكفي أن سلبها المحتل الصهيوني ؟! ألا يكفينا ما حل بها ؟! أم هي بحاجة لأن يدخلها أبطال أوسلو لكي يمارسوا بطولتهم عليها ويزيدوا من جراحها جراحاً ؟!

وهنا طلبت من صديقي أن يصطحبني بعيداً جداً ؛ إلى البحر وإلى المدن المحتلة ، هناك إلى يافا وحيفا وإلى اللد والناصرة ، زرت تلك المدن التي رغم أنها محتلة بشكل كامل إلا أنها كانت خالية من قوات الاحتلال ، فهي أصبحت الآن من المسلّمات بعد أن تنازل عنها المفاوض الفلسطيني ، ذلك المفاوض الذي لم يفوّضه أحد لكي يبتَّ بأمر فلسطين ، فاوض وباع وتنازل عن كل تلك الأراضي التي احتلت بعد عام ١٩٤٨م ، ذلك المفاوض الذي حصر

مطالبه في الضفة والقطاع وبعض الشوارع المجاورة لمدينة القدس ، **حسبي الله ونعم الوكيل على كل من باع ذرة تراب من تراب فلسطين** ، فلسطين القدس والأقصى ، فلسطين الفاتح عمر ابن الخطاب ، فلسطين التحرير صلاح الدين ، باعوها وحصلوا على بطاقات "الشخصية المهمة" (VIP) بدلاً عنها ، حصلوا على المواكب المرافقة ، وملؤوا جيوبهم وحساباتهم البنكية ؛ بعد أن قبضوا ثمن كل قطرة دم نزفت على تراب فلسطين !

اعلم يا ملاكي الحارس أني لم أحب يوماً من الأيام ياسر عرفات ، ولن أحبه أبداً ، أليس هو من ناصَرَ الطاغية صدام حسين؟ أليس هو من جرَّ علينا ويلات أيلول الأسود في الأردن؟ أليس هو من طردنا من لبنان ؟ لماذا عاد إلى فلسطين ؟ أعاد إليكم مشواره في تدمير الشعب الفلسطيني ، شعب أطفال الحجارة ، ورجال الانتفاضة ؟

هناك في الناصرة زرت كنيسة البشارة وأشعلت شمعة فيها ، فأنا يا ابنتي تعودت أن أزور الأماكن التاريخية ، ولقد اكتسبت هذه العادة من خلال دراستي للأدب الكوري ، فلقد زرت كل المعابد في كوريا ؛ معابد وكنائس ومساجد ؛ ولذلك أصبحت أرغب بالتعرف على الآخر ، على الحضارة وعلى العادات والتقاليد .

أما على الشاطئ وعندما حلّ موعد الغداء فلقد أكلت السمك ، وما إن اختلطت رائحة السمك المشوي مع رائحة مياه البحر ، حتى قلت كلمة ؛ بل جملة جعلت صديقي يفرّ من كرسيه راجياً إياي أن أسكت ! قلت : **" أقسم بالله أن أحرر فلسطين كل فلسطين، أقسم أن أجرد الصهاينة منها، وأقسم أن أجرد أشباه رجال أوسلو منها "**، وكررت ذلك مخاطباً البحر.

كررت ما قلت وكان صوتي يعلو ويعلو ، أما صديقي المقدسي فكان يرجوني بأن أسكت، لم أسكت بل كررت بصوت أعلى وأعلى ، ولكني قلت تلك الجمل بلغة لا يفهمها صديقي أو من كانوا بالمكان ، قلتها باللغة الكورية ؛ لغتي التي تعلمتها عندما درست وعملت بكوريا ، فتحولت تلك الجمل إلى ما يشبه لحن نشيد جميل ، **فلسطين كل فلسطين ، ولا شيء سوى كل الكل في فلسطين** .

بعد أن انقضى النهار وحل المساء ، كانت أول المدن الساحلية الفلسطينية تزداد جمالاً وتألقاً ، تناولت عشائي وطلبت من صديقي أن يوصلني لقريتي ، إلى بيت ريما حيث منزل والدي ، حيث العروس تنتظرني .

❀ ❀ ❀

في الطريق إلى القرية كنت صامتاً غارقاً بالتفكير ، فلقد قررت أنه بمجرد رؤيتي للعروس أن أقول : " **لا وألف لا ! هذه العروس لا تناسبني أبداً !** " ، هكذا قررت ، وعلى هذا نويت !

وصلنا القرية بعد منتصف الليل ، كنت أظن أني سوف أجد صعوبة بالوصول لمنزل والدي ، ولكني وجدت والدي ينتظرني على مدخل القرية ومعه عدد من أبناء عمي ، ينتظرني منذ أيام ، فلقد صادف أن والدة صديقي المقدسي زارت أمي في عمّان ، وأخبرتها أني هناك في فلسطين منذ عدة أيام ، والدي كان يعتقد أني قد اعتقلت من قبل قوات الاحتلال على الحدود أنا وصديقي المقدسي ، لأننا طوال تلك الأيام لم نتصل بأحد عبر الهاتف أو الجوال ، فلقد أغلقت جهازي وطلبت من صديقي أن يغلق هو الآخر جهازه حتى لايزعجنا أحد خلال رحلتنا في ربوع فلسطين الأسيرة .

والدي كان غاضباً ؛ بل غاضباً ومسروراً ، فلقد رآني سالماً و هذا ما كان يهمه ، فبرغم أني تجولت وزرت عدداً كبيراً جداً من دول العالم ؛ إلا أنها المرة الوحيدة طوال عمري التي يقلق بها والدي علي ! فأنا زرت معظم دول آسيا مثل كوريا وهونغ كونغ وتايوان والصين واليابان وحتى أني زرت ماليزيا وأندونيسيا وتايلاند ، أما عربياً فزرت معظم دول الخليج العربي والعراق وسوريا ! لم يقلقْ علي والدي أبداً ، أما هذه المرة فلقد قلق جداً وغضب جداً !

وعندما سألته قال : " في تلك الدول هناك قانون وشرائع ؛ أما هنا فشريعة الغاب هي التي تحكم ، شريعة الصهاينة خونة العهود وناكثي الوعود ، هنا شريعة سلطة الفساد والإفساد التي تقوم على الرشوة والعمالة للمحتل ، لذلك قلقت عليك يا ولدي ، أعلم أنك كبير وواعٍ وأنك

قوي جبار يا ابني الغالي ، لكني أعلم أنهم كفرة فجرة ؛ لا ذمة لهم ولا دين ، دير بالك على حالك ، بكرة إن شاء الله سوف ترى العروس وبعد ذلك تعود إلى عمّان ، أنت يا ولدي مثل السيف ، ونحن لسنا بحاجة لسيف في فلسطين ، فالسلطة باعت والعدو اشترى ، ولا مكان للسيوف هنا ، هنا مكان للمحاريث التي تحرث الأرض أو ما بقي من الأرض ، محاريث تحرث وأناس يزرعون ، ولا يمكن أن يصبح السيف محراثاً أبداً " .

آه منك يا والدي ويا معلمي الأول ، يا من تَعلَم ولا أعلم ، ويا من ترى ما لا أرى ، رغم أنك لم تدرس ورغم أنك إنسان طيب بسيط جداً ، إلا أنك عميق الفكر والتفكير .

أمضيتُ تلك الليلة في منزل والدي ، بل أقصد منزل جدي الذي ورثه عن جد جد جده ، لم يكن منزلاً بل كان عبارة عن شيء آخر يسمونه العلالي ، أو القلعة أو القصر ، كان شيئاً قديماً جداً تبلغ سماكة جدرانه من مترين في بعض الأماكن إلى متر ونصف في أماكن أخرى ، كبير وجميل ؛ لكنه بحاجة ماسة للإصلاح والترميم .

في تلك الليلة لم أسلم من البعوض الذي أقلق منامي ، رغم أن الحداثة قد دخلت إلى قريتنا منذ زمن طويل ؛ إلا أن والدي بعد أن عاد إلى فلسطين لم يفضل إدخال الحداثة إلى تلك القلعة التي ورثها عن أبيه وأجداده ، فضّل أن يعيش على مصباح يضاء بالكاز ، ولم يكن يملك أي شيء يمتُّ للحداثة بصلة في ذلك المنزل ، رغم أن منزله في عمّان أشبه ما يكون بمحل للأدوات الكهربائية الإلكترونية ، فمثلاً بعد أن عدت من كوريا قمت بتركيب صحن لاقط هو الأكبر على مستوى الأردن ، فكان حجمه قائماً مكتملاً يتجاوز الأربعة أمتار ونصف ، وعندما

كنت في كوريا كنت أرسل لإخوتي أحدث الأجهزة الكهربائية والكمبيوترات ، ولكن هنا في القلعة لم يكن سوى الحجارة والبعوض .

استيقظت مبكراً على صوت المؤذن ، فلقد كان المسجد القديم يقع بجوار منزل والدي ، صلى والدي بالمسجد وصليت أنا متيمماً لأني لم أجد الماء ؛ فلقد أخذ والدي المصباح معه ليرى الطريق إلى المسجد ، بعد أن عاد توضأت وصليت ، وأعدّ لي والدي طعام الإفطار ؛ طعاماً أقسم أن طعمه ما يزال في فمي إلى الآن ، رغم أني لم أترك صنفاً من أصناف الطعام إلا وتناولته خارج فلسطين ، إلا أن ما أعده لي والدي كان له طعمٌ خاص ورائحة قدسية أخرى !

عندما أحضر والدي صينية القش التي وضع عليها أطباق الطعام ؛ وجدت مقلاة مليئة بزيت الزيتون وفيها عدة بيضات مقلية ، كانت البيضات غارقات بالزيت ، وكانت على صينية القش عدة حبات من البندورة وصحن للزيت وصحن مليء بالجبنة البيضاء .

أنا أكره الزيت وأكره الدهون كثيراً ، فلقد تعودت في كوريا على الأصناف المسلوقة والمشوية ، أما الزيت فلا وألف لا ، هذا ما قلته لنفسي ؛ ولكني تجاوبت مع إلحاح والدي ، فبدأت بتناول الطعام ، ولم أتوقف إلا بعد أن مسحت الأطباق ؛ فلقد أحببت خبز الطابون والزيت والزعتر ، أحببت القلعة ، بل إني أصبحت جزءاً من تلك القلعة وتاريخها .

أمضيت يومي مستقبلاً المهنئين بوصولي سالماً غانماً كما يقولون ، أهم المهنئين كان "بلال" ؛ بلال ابن عمي الذي فقد كليته قبل أعوام طويلة عندما كنت في كوريا ، بينما كان يلقي الحجارة على اليهود في طرقات فلسطين ، بلال يصغرني بعدة أعوام ، ما زال يدرس في الجامعة

علم الاجتماع وعلم النفس ، تلك الجامعة ، جامعة المهندس يحيى عياش ؛ جامعة بيرزيت ، لم نتمكن من الحديث طويلاً فلقد كان المهنئون كُثراً ، أمضيتُ يومي الأول على هذه الحال وجزءاً من اليوم الثاني .

وعندما حل مساء اليوم الثاني توجهت مع والدي لرؤية العروس حسب موعد مسبق ، في ذلك اليوم قدر الله لي أن أرى أجمل وأحلى عيون في حياتي ، أحببت عيونها ؛ بل سحرتني بعيونها الخجولة ، فطلبت يدها على الفور .

بعد ذلك عدت إلى عمّان لأعد لأمور الزواج هناك ، وما هي إلا أشهر قليلة حتى جاءت لعمّان وتزوجتها هناك ، كانت بفضل الله زوجة كاملة متكاملة ؛ هادئةً وصامتة ، ذات فكر ناضج وعقل واسع ، وهنا أقول لك يا ملاكي الحارس أني للمرة الأولى في حياتي قد وقعت في الحب وذقت طعمه .

رغم أني عندما سافرت إلى فلسطين أردت أن أقول "لا" لذلك الزواج ولم أسافر إلا إرضاء لوالدتي الكبيرة المريضة – شفاها الله – إلا أني وقعت في الحب من أول نظرة ، هل كان ذلك سحر الحب ؟ أم سحر فلسطين ؟ لست أدري ! ولا أريد أن أدري ! ما يهمني هو أني عشت وما زلت أعيش رغم مرور أعوام طويلة في حالة من الحب المستمر ؛ حب عماده الاحترام والتفاهم ؛ حب لا غالب له ولا مغلوب .

طوال تلك الأعوام لم تحدث مشكلة واحدة أبداً ، لا عندما كنت ثرياً ولا عندما أصبحت فقيراً معدماً ، لا عندما كنت حراً طليقاً أجول معها بجولات سياحية في أجمل الفنادق ، ولا

عندما أصبحت أنا وهي مطارَدَيْن بلا مأوى ، ولا عندما أُسِرتُ ، فهُدمت وفُجّرت القلعة .

ظل الحب هو عماد علاقتنا وما زال ، لكن هناك حُباً آخر بدأ يكبر وينمو بداخلي ؛ حب للجهاد والحجر ، حب للتراب والشجر ، حب لفلسطين والقدس ، وذلك ما إن حملت زوجتي حتى ودعتها بعد أن ضيّقتُ أعمالي التجارية في عمّان ، وعدت إلىهناك إلى فلسطين ؛ لا بل إلى القدس .

هناك عملت في إحدى الشركات المقدسية التي يملكها صديق لي ، وكانت تلك الشركة تعمل في مجال الفولاذ المصهور ، ومن هنا ابتدأ المشوار والحكاية ، حكاية **"مهندس على الطريق"** ؛ وحكاية **"أمير الظل"** ، حكاية صاحب أعلى حكم في تاريخ القضية الفلسطينية ، حكاية المحكوم بسبعة وستين مؤبداً وخمسة آلاف ومئتي عام ! حكاية صاحب أكبر ملف أمني في تاريخ دولة الاحتلال الصهيوني ، حكاية عبد الله البرغوثي .

❀ ❀ ❀

ابنتي الحبيبة وملاكي الحارس :

عندما دخلت إلى فلسطين لم يكن هدفي العمل وجمع المال ؛ فلقد كنت أملك من المال ما يكفيني ويكفي عائلتي أضعاف أضعاف ما يمكن أن أصرفه طوال حياتي ، ولم أبحث عن الحب أو الزواج ؛ فلقد كنت قد أحببت وتزوجت ، دخلت فلسطين لأني أقسمت بالله أن أعمل على تحريرها من المغتصبين الصهاينة ومن فاسدي سلطة أوسلو ، كيف ؟ لا أعلم ، كل ما كنت أعلمه هو أني حملت بداخلي الأمل وإخلاص النية على تحقيق هدفي ، فحولت أملي وحلمي إلى واقع ملموس كرست لأجله كل طاقاتي وإمكاناتي ، بعد الله استعنت بالكتمان والصمت لعلي أصل إلى طريق الحرية والتحرر .

عندما اتخذت ذلك القرار كانت فلسطين هادئة جداً ؛ وكانت المفاوضات تسير بلا انقطاع ، كان التنسيق الأمني بين قوات الاحتلال الصهيوني وقوات الأمن الوقائي والمخابرات الفلسطينية على أعلى مستوى ، وكم فوجئت عندما علمت أثناء زيارتي الأولى لفلسطين أن هناك اثنين من أبناء قريتي وعائلتي معتقلان على نفس القضية وهي الانتماء لحركة حماس ! وأن الاثنين محكومان بعدة أعوام ! هذا غير مهم ، المهم أن أحدهما معتقل ومحكوم عند الصهاينة ، والآخر معتقل ومحكوم عند كلاب الصهاينة ؛ عند السلطة الفلسطينية ، قاوما معاً فسجنا عند المحتل وكلب المحتل ، لذلك أخذت من الكتمان والعيش بعيداً في الظل وسيلة لي لعلي أصل إلى غايتي .

قبل دخولي لفلسطين في زيارتي الثانية ؛ أدخلت كل ما يلزمني من أدوات وأجهزة خاصة

تساعدني على مقاومة المحتل ، وعندما أقول كل ما يلزمني أعني ذلك كل ما تحمل الكلمة من معنى ؛ الإشارات اللاسلكية وأجهزة إلكترونية وأدوات كهربائية ومواد تستعمل للتفجير والكثير الكثير ، دَخَلَت دون أن ينتبه أحد ، مخبأة بداخل أجهزة كهربائية عادية ، وذلك بسبب قوة ومتانة التنسيق الأمني بين أعدائي و"أعدائي" ، أدخلت ما أريد إدخاله أمام أعينهم ، فكل واحد منهم كان يفهم أن الآخر سوف يقوم بمهمة التفتيش نيابة عن الآخر ، اللهم اضرب الظالمين بالظالمين .

وما إن استقر عملي بالقدس حتى اشتريت عدداً من أجهزة الحاسوب ، لأدمجها وأوحّد قوتها لكي أتمكن من اقتحام شبكة الانترنت ، وأصبحت كما كنت في كوريا أدخل المواقع التي أريدها ، أرى محتواها وآخذ منها ما أريد ، والأهم من ذلك هو الكتمان ، أدخل بهدوء ؛ وأخرج بهدوء ، ولم يكن قصدي التخريب ؛ بل كان قصدي وهدفي أن أعرف الآخر ، أعرف عدوي وأعرف قدراته ، لم أكتف بذلك بل وخلال مدة قصيرة استطعت اقتحام شبكة الاتصالات الخلوية الصهيونية شركة "سلكم" وشركة "موتورولا" وشركة "أورانج" ، تلك الشركات العاملة في مجال الاتصال في الكيان الصهيوني المعادي ، أما عند سلطة الفساد والإفساد فكان هناك شركة واحدة هي شركة "جوال" ، فاقتحمتها هي الأخرى .

مكنتني تلك الاقتحامات من السيطرة بشكل كامل على المكالمات الواردة والصادرة ، أما المهم فكان سيطرتي على استراق السمع من تلك الأجهزة وهي في حالة سكون ؛ أي أستمع لما يجري من حديث في المكان الموجود به أياً من تلك الأجهزة .

بعد ذلك بدأت بإعداد الأدوات الإلكترونية والمواد الكيماوية اللازمة لصناعة العبوات المتفجرة والناسفة بمختلف أنواعها وأشكالها ، كل ذلك تم بصمت .

بقيتُ على هذه الحال أشهراً عدة بحيث أعمل في الشركة من ناحية ؛ وأقوم بالإعداد لمعركتي من ناحية أخرى ، فلم أكتف بالجلوس خلف أجهزة الحاسوب ؛ بل أصبحت أمضي أيام العطل أتجول في مدن فلسطين المحتلة من أقصى الجنوب ؛ أي من أم الرشراش – أو كما يسمونها – إلى الجولان وبحيرة طبريا ، وبذلك عرفت عن الطرق وكيفية التنقل ، وأكثر ما ساعدني هو جواز سفري الأجنبي ولغتي الإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية ، فأصبحت أعرف فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م أفضل مما أعرف مدن الضفة الغربية .

لم أكن أزور القرية إلا نادراً رغم إلحاح والدي الذي ما زال هناك ؛ فوالدي أصبح يفضل البقاء في القرية ولا يعود إلى الأردن إلا في المناسبات ، ولكن هذا الحال لم يدم طويلاً أكثر من أشهر معدودة ، أما السبب فهو يا ملاكي الحارس يا ابنتي الحبيبة أنه قد اقترب موعد مولدك ، وأحببت أن تولدي هنا في فلسطين ، ولذلك كان لزاماً علي أن أصلح وأرمم قلعة جدك القديمة، فأصلحتها وأعدت لها رونقها وجمالها وأدخلت عليها كل أسباب الراحة ، فمثلاً لاحظت أن الكهرباء تنقطع باستمرار بعد أن أوصلتها للقلعة ؛ وكان السبب هو رداءة الشبكة الكهربائية في القرية ، ولذلك قمت بتركيب نظام طاقة شمسية فوق سطح القلعة ؛ وهكذا أصبحت أملك الكهرباء بشكل دائم ومستمر ، ولم أترك أداة ووسيلة من وسائل الراحة إلا واشتريتها ووضعتها في القلعة ، وأنشأت القلعة بالإنشاء الحديث الجميل ؛ ولكني لم أكن أبيت في القرية بل كنت

أقود سيارتي عائداً إلى شقتي في القدس ، حيث أمضي الليل متعقباً ومستطلعاً عدوّي .

وقبل موعد مولدك بشهر واحد أصبحت القلعة جاهزة ، فطلبت من والدتك الحضور من عمّان إلى فلسطين ؛ ولم تكن تعلم بما قمت به ، فظنت أننا سوف نسكن في القدس أو رام الله ، ولكنها رسمت ملامح الحزن عندما قلت لها أننا سوف نسكن في بيت والدي في القرية ، فهي ظنت أن القلعة على حالها ، مجرد كومة من الحجارة كما تركتها قبل أن تسافر إلى عمّان ، ولكن سرعان ما تغيرت ملامح الحزن لتصبح ملامح فرح وسرور عندما وجدت البيت بأحلى حلة وأفضل حال .

وفي يوم ٢٧/ ٩/ ١٩٩٩م تلقيتُ اتصالاً من أحد أخوالك يبلغني فيه أنه نقل والدتك إلى المشفى في رام الله لتلدك ، فحضرت مسرعاً من القدس .

ابنتي تالا ، هذا هو الاسم الذي أسميتك إياه قبل أن تولدي ، لم أكن أحظى بأي وقت للفراق عندي إلا لشيء واحد وهو متابعة أعدائي ، أما بعد أن وُلدتِ وأصبحت حقيقة وواقعاً ، انقلبت حياتي رأساً على عقب ، فلقد أصبحتُ ومنذ اليوم الأول لولادتك لا أذهب إلى عملي في القدس أو إلى شقتي هناك لمتابعة ما كنت أقوم به ، أصبحت أمضي معظم وقتي في القرية برعايتي لك ورعاية أمك التي أحب .

تالا ، هل تعلمين أنك ارتديت مئة فستان وأكثر في أول مئة يوم لك في هذه الحياة ؟! فلقد كنت لا أكفّ عن شراء الملابس والألعاب والهدايا لك وكل ما أراه مناسباً لك أو حتى غير مناسب !

تالا ، أنت وُلدت بعد حرمان طويل ، حرمان لم أكن أشعر به ، ولكن عندما أمسكت بك بعد ولادتك بثوان من يد الطبيبة التي ولّدت أمّك ، حتى شعرت بمدى ذلك الحرمان من نعمة الأولاد والأطفال ، فكما قال رب العالمين : " المال والبنون زينة الحياة الدنيا " صدق الله العظيم.

المال كنت أملك منه الكثير والكثير ، أما البنون فأنت أول الأبناء يا ملاكي الحارس ، هل تعلمين أن اسم الطبيبة التي كانت تشرف على حالة أمك في شهرها الذي أمضته في فلسطين كان "فلسطين" ؟! نعم "فلسطين" ، هو اسم الطبيبة التي رأيتِ على يديها النور !

قالت لي "فلسطين" : " إنك أول أب أراه في فلسطين طوال عملي كطبيبة داخل غرفة الولادة ويحتضن طفلته قبل أن تحضنها أمها ، وقبل أن نجري لها الفحوص اللازمة ! " ، فقلت ما دامت "فلسطين" هي من ولّدت زوجتي على أرض فلسطين فلا شيء غريب أو عجيب .

هنا يا ابنتي شعرت أن القرية بحاجة إلى بعض المشاريع التجارية ؛ ولذلك افتتحت محلاً للأدوات الكهربائية ومحلاً آخر للسوبرماركت ، وأصبحت أمارس التجارة مرة أخرى ، بالإضافة إلى عملي في القدس ، بل إنني وسعت هذه التجارة فأصبحت أستورد السيارات المستعملة من كوريا عن طريق عمّان وأتاجر بها .

أصبحت أتاجر بالعقارات ، فلقد أعادتني لحياتي السابقة من تجارة ومنافسة بالسوق ، وأبعدتني عن هدفي الذي كنت أسعى إليه ، بقيتُ طوال عام تقريباً على هذا الحال .

وقبل موعد ميلادك الأول جاء موعد قطف الزيتون ، ولذلك عملت على أن تسير

أعمالي التجارية عن طريق من يعملون معي وتفرغت لقضاء عدة أسابيع في قطف الزيتون ، وكنت أصطحبك مع جدك وأمك إلى كروم الزيتون الخاصة بجدك لنتعاون على قطف الزيتون، هناك تعلمتِ المشي وسرتِ أول خطواتك في جبال بيت ريما .

في تلك الأيام أعدت تنسيق أفكاري مرة أخرى وأدركت أنني ما عدت عبد الله أمير الظل، بل أصبحت مجرد تاجر مهندس همه جمع المال ؛ المال الذي لم أكن بحاجة إليه أصلاً ! لم أعد مهندساً على الطريق ؛ بل مجرد مهندس يسخّر عمله لإنجاح مشاريعه .

لكنّ ذلك لم يدم طويلاً ؛ فما أن أكملت عامك الأول أي بتاريخ ٢٧/ ٩/ ٢٠٠٠م حتى قام ذلك القذر شارون بتدنيس المسجد الأقصى واندلعت الانتفاضة الثانية ، وكنت أنا هناك في جبال بيت ريما أقطف الزيتون وأراقب بهدوء حتى أقرر ماذا سوف أفعل .

كنت حائراً ، فأنا وحدي لا أستطيع مقاومة الاحتلال ، فبدأت أفكر دون جدوى ، دون أن أصل إلى طريق أو إلى نقطة بداية أبدأ من عندها ، فعلاقتي مع محيطي تكاد تكون مقطوعة ؛ أو شبه مقطوعة ، فلم أكن طوال وجودي في فلسطين أبني وأقيم العلاقات مع أي أحد ؛ ولا حتى مع بلال ابن عمي وصديقي ؛ فلقد كان هو في عالمه الخاص ؛ وأنا كنت في عالمي الخاص .

بعد أيام قليلة على اندلاع الانتفاضة ، قدر الله أن تصابي يا ابنتي بمرض عجز عن علاجه أطباء القرية ، ولم يكن من السهل نقلك إلى رام الله ؛ لأن قوات الاحتلال حاصرت قريتنا ، ووضعت حواجز ترابية على الطرقات منعت تنقل السيارات الخاصة ، فانطلقت إلى إحدى القرى المجاورة بسيارتي ، ومن هناك ركبت معك ومع والدتك إحدى الحافلات لكي نصل إلى رام الله ، قدر الله لك أن تمرضي ولكنه قدر لي أن أرى بداية الطريق ، طريق الجهاد ؛ طريق عز الدين القسّام ؛ طريق يحيى عياش .

في منتصف الطريق وقبل أن تصل الحافلة إلى مدينة بيرزيت توقفت ، وتوقفت أمامها الكثير من الحافلات وأغلقت الطريق ، فنزلت لكي أرى ما المشكلة وأعرف سبب إغلاق الطريق ، هناك وجدت حافلتين ترفض إحداهما السماح للأخرى بالمرور قبلها ، ووجدت شخصين فاجرين هما السائقان ، فلقد كانا يكيلان السباب والشتائم للذات الإلهية ! كانا يكفران بأشنع الألفاظ ، بل كانا يتقنان لفظ كفرهما ، عند ذلك الموقف ابتسمت ؛ نعم يا ابنتي ابتسمت ؛ فشر البلية ما يضحك ، ابتسمت وعدت إلى الحافلة التي كنت أستقلها معك أنت وأمك ؛ لكني لم أعد لأجلس في الحافلة ؛ بل عدت لأنتزع ربطة عنقي وجاكيتي وساعتي ، نزعتهم وشمرت عن ذراعي وانطلقت عائداً إلى السائقين الفاجرين .

التقطت الأول من عنقه وقلت له : **"كيف تسب ربي يا أيها الكافر الفاجر؟ ألا تعلم أن الذي تسبه هو ربي ؛ رب عبد الله البرغوثي ؟ "** ، قبل أن يجيب انهلت عليه بالكلمات والضربات حتى أدميته بين ذراعي وألقيتُ به إلى وادٍ بجوار حافلته ، وتوجهت فوراً إلى السائق الآخر الذي

ما إن تلقى اللكمة الأولى حتى ولى هارباً إلى الوادي الآخر ، صعدت إلى حافلته وقدتها بعد أن أنزلت ركابها لتسقط في الوادي ، وفعلت ذات الشيء بالحافلة الأخرى ! لم يتجرأ أي من الركاب على سؤالي عما فعلت ، فلقد كانت قوتي مفرطة ونظرات عيوني قاتلة ، عندها صحت قائلاً : **" أنا عبد الله البرغوثي ؛ من كان له حق عندي فليأت إلى قريتي ؛ إلى بيت ربها ليأخذ حقه ، ولكني أقسم بالله العلي العظيم أن لا أجعله يخرج حياً من بين يدي ، فمن يسب الذات الإلهية لا مكان له عندي سوى القبر " !**

تركتهم بذهولهم بعد أن عادت حركة الحافلات إلى مجراها الطبيعي ، ولكنّ هناك يداً أمسكت بيدي وقال صاحبها : " ما شاء الله حديد ! حديد الله يقويك يا ابني " ، كان من أمسك بيدي شيخ كبير في السن ؛ ظل ممسكاً بيدي ويكرر : " حديد ما شاء الله حديد " ، صعدت إلى الحافلة وإذا به يصعد معي ؛ فلقد كان هو الآخر من ركاب نفس الحافلة ، بل كان من أبناء عائلة البرغوثي ، عائلتي الذين يسكنون في تلك القرية المجاورة .

قبل أن نصل إلى الحافلة كان الخبر قد وصل ، فلقد قصَّسائق الحافلة القصة دون أن ينتبه أنها قصة أحد الركاب الذين يركبون معه في نفس الحافلة ؛ فما إن وصلت مع الشيخ حتى قال : " هذا هو" ، ولم يكمل ، أما زوجتي فقالت : " ألم يكْفِكَ ما فعلته في عمّان؟ " .

في عمّان هناك بعد أن تزوجت بعدة أسابيع ، ذهبت لمقابلة أحد مدراء الشركات التي أتعامل معها ، وكان يسبّ أحد الموظفين عنده ، ولكن ما أثارني هو تجرؤه على الذات الإلهية ؛ فطلبت منه أن يكف عما يقول ، إلا أنه حول تلك الشتائم لي أنا وربي وديني أنا ، فما كان مني

سوى أن انهلتُ عليه ضرباً مبرحاً ، فكسرت له فكه ويده وأحد أضلاعه ، مما جعله يرقد في المستشفى ما يقارب الشهرين ، وجعلني مطارَداً من قبل قوات الأمن الأردني ، أعلم أني كنت قاسياً ؛ أو حتى كما وصف سائق الحافلة الذي قال أنه رأى وحشاً غاضباً ينهال بالضرب على السائقين ، أعلم أني قاسٍ ؛ ولكن أعلم أيضاً أن تربيتي الدينية بدولة الكويت تركت في داخلي أثراً كبيراً جداً من ناحية رفضي مثل هذه التصرفات التي أصنفها كفراً لا أكثر ولا أقل ، فمن يشتم الله ورسوله فهو كافر مرتد .

بعد أن أصبحت مطلوباً ومطارداً من قبل أجهزة الأمن الأردنية ، حاول عدد من أقاربي وأصدقائي التوسط لي مع ذلك المدير الذي كان ما زال يرقد في المشفى ، إلا أنه رفض وتوعد، بل أنه عاود شتم الذات الإلهية رافضاً أي وساطة متوعداً مهدداً ، لكن ذلك لم يطل كثيراً ، ففي إحدى الليالي وقبل طلوع الفجر أيقظته من نومه في المشفى ، أيقظته وأنا أضع في فمه فوهة مسدس وقلت له : **" اعلم أني لم أضربك إلا نصرة لله عز وجل ؛ واعلم أني سوف أقتلك إن لم تتنازل عن القضية ، فأنا لا أتوعد ولا أهدد ، أنا جئت لأخبرك فقط ما الذي سوف أفعله إن لم تفعل ما أمرتك به "** ، سحبت فوهة المسدس من فمه وابتسمت له وتركته يكمل نومه ، هذا إن ذاق طعم النوم ، وما إن طلع الصبح حتى كان قد توجه إلى إحدى مراكز الشرطة لسحب البلاغ ضدي وسحب شكواه .

وما هي إلا أيام معدودة حتى وصلت عن طريق أحد أقاربي لقاضٍ أسقط عني المطاردة والحق العام ، فأنا أؤمن إيماناً قاطعاً أن من يوجه عمله لله فلا غالب له .

ما إن انطلقت الحافلة حتى انطلقت أسئلة ذلك الشيخ البرغوثي السؤال تلو السؤال ، كان يسأل بحماس وقوة ؛ وخاصة عندما علم أني مهندس ، بعد ذلك سارت الحافلة نحو رام الله ، وأنزلتنا عند أحد الحواجز الترابية ، وما هي إلا عدة خطوات حتى علقت بحذائي سلسلة ذهب كبيرة معلقاً بها قطعة ذهب جميلة !

رفعت السلسلة وزوجتي تراقب يديّ اللّتين ارتقتا إلى السماء ، فلقد رفعت يدي مخاطباً ربي شاكراً إياه على هذه العطية وهذه اللفتة الجميلة ، فأنا من عادتي أن أخاطب الله عز وجل دون تكلف ودون حواجز ، فأنا عبده وهو ربي ؛ ولم أُخلق إلا لأعبده ، بهذه البساطة أتعامل مع الله عز وجل ، وضعت إعلاناً عن السلسلة الذهبية في مدينة رام الله ، لكن لم يطلبها أحد فبقيت معلقة في رقبة زوجتي ؛ ولكنها تحولت من ذهب إلى رصاص بقدرة قادر ، وأصبحت جزءاً من وقود المعركة التي لم تبدأ بعد ، وبعد هذه الحادثة استشهد أحد أقاربي في القرية المجاورة فذهبت هناك مع والدي لنشارك في جنازة الشهيد .

❀ ❀ ❀

صلينا الظهر وانطلقنا للمقبرة ونحن نكبر ونهلل ونهتف ونتوعد بالانتقام ، بعد أن ووري جثمان الشهيد الطاهر الثرى ، بدأ أبطال السياسة بإلقاء الخطب العصماء ، فتركتهم وتوجهت لسيارتي ، هناك كان موعدي مع أبي لكني لم أجده ؛ يبدو أنه فضّل سماع السياسيين وكلامهم الذي لا يروي العطشان ، فهو مثل ماء البحر المالح ؛ لا يزيد شاربه إلا عطشاً .

عند السيارة وجدت الشيخ الذي سبق وأن رأيته يوم مرض ابنتي تالا ، قال لي : "ما رأيك بأن تذهب معي لنتناول طعام الغداء معاً ؟ " قلت له أني مستعجل ، قال : " ما راح أأخرك أكثر، بدي أغديك وأعطيك أمانة توصلها لصاحبها " .

ما إن وصلت لبيته حتى خرجت لي زوجته الحاجة ، كانت بشوشة فرحة بقدومي ، سلمت عليَّ وقبّلت رأسي ! رأسي أنا قبَّلته تلك الحاجة ! قالت لي : " أنت تذكرني بولدي ، هو هناك بعيد في المعتقل ، فهو معتقل منذ أعوام طويلة منذ الانتفاضة الأولى " .

وضعت الحاجة الطعام فأكلت وأنا منشغل بالإجابة على أسئلة الشيخ ؛ أسئلة كثيرة ، فلقد قال لي مثلاً : " إذا دخل علينا جندي صهيوني ماذا سوف تفعل؟ " ، قلت : **" آكله حياً فلا داعي للطعام الذي أعدته الحجة "** ، قال: " بالله عليك !" ، قلت : **"والله هذا ما سوف أفعله "**. أسئلة من هذا النوع ومن نوع آخر ، نوع لم أجب عليه لكني أعتقد أن الله جعل الحاج يعرف الإجابة رغم أني لم أجب .

بعد انتهاء الطعام شكرته وشكرت زوجته وهممتُ بمغادرة منزله ، ظلّ صامتاً ؛ لكني ما إن اجتزت جزءاً من حديقة المنزل حتى صاح عليّ وطلب مني العودة فعدت ، **" خيراً يا عمي**

الحج ؟ " ، قال : " ألم تنس الأمانة ؟ ألم أقل لك أني سوف أعطيك أمانة لكي توصلها لصاحبها؟ " ، بقيتُ صامتاً فقال لي : "اتبعني واحمل معك هذا الفأس " ، حملت الفأس وسرت خلفه حتى وصلت إلى جوار أحد أشجاره فقال : " احفر هنا ، احفر بهدوء حتى لا تتلف ما بداخل الأرض " ، بدأت أحفر صامتاً حائراً ، أَجُنّ هذا الشيخ أم أني أنا المجنون حتى أتبعه إلى هنا وأحفر في المجهول ؟! بعد مرور فترة وصلت إلى كيس أسود وهنا قال لي : "احفر بحذر " ، فقلت له : **" لماذا بحذر؟"** ، قال : " والله يا ابني لا أدري ؛ إنما احفر بهدوء وحذر "، واصلت الحفر وأخرجت كيساً أسودَ كبيراً جداً ، وبداخله وجدت حقيبة جلدية معلقة ، فقال لي: "ارفعها وألقِ الكيس بعيداً ، واترك الحفرة فأنا سوف أعود فيها بعد وأعاود ردمها " ، قال لي : " اسبقني إلى البيت ولا تدع أحداً يراك ، فأنا يا ولدي بطيء الحركة كما ترى ، أسرع بالله عليك " .

أسرعت ووصلت ، ووصل هو أيضاً ، قلت له : **" لمن أوصل هذه الحقيبة ؟ هذه الأمانة؟"** قال لي : " أوصلها لصاحبها " ، فقلت له : **" بالله عليك يا عمي الحج لا تصر علي فصبري بدأ ينفد ؛ من صاحب الحقيبة؟"** ، قال : " أوصلها للمهندس" ، **" أي مهندس يا عمي الحج؟! "** قال : " وهل يوجد مهندس في فلسطين سوى المهندس يحيى عياش ! " ، فقلت له : **" عياش قد استشهد! "** ، قال : " أعلم لكنها حقيبته وضعها عندي أمانة قبل أن يترك الضفة ويتوجه إلى قطاع غزة ، قبل أن تصل له يد الغدر والخيانة ؛ قبل أن يستشهد ، خذها وأوصلها له".

بقيتُ صامتاً حائراً ، فقال: " ألست مهندساً ؟ ألست أنت من غضب لله وغضب لكرامة نبيه محمد ﷺ قبل أيام ؟ ألم تقل أنك سوف تأكل الجندي الصهيوني حياً وبدون ملح ؟ خذها يا ولدي فصاحبها استشهد منذ زمن ؛ وابني في الأسر منذ أعوام طوال ومحكوم عليه بأعوام طويلة ، خذها بالله عليك فهي لك أنت ، أنت صاحبها وهي صاحبتك ، خذها وسر على درب المهندس عياش ، حرام أن تبقى مدفونة في الأرض بعد أن اندلعت الانتفاضة وبعد أن بدأنا نودع الشهيد تلو الشهيد ".

كان يتحدث والدموع تجري من عينيه ، حملتها وقبلت رأسه مودعاً هائماً في ملكوت الله ، عندما وصلت إلى سيارتي لم أجد والدي فلقد تأخرت عليه كثيراً ، فذهب مع أحد أقاربنا عائداً إلى البيت ، أما أنا فقُدت السيارة ووضعت الحقيبة في أحد محالي التجارية الفارغة التي كنت أملكها في القرية .

لم أجرؤ على فتحها ورؤية ما بها ، كنت أخشى من تلك الكلمة "الأمانة" ، ألم يحمل الإنسان الأمانة وكان جهولاً بعد أن رفضتها الجبال؟ أأحمل حملاً فوق طاقتي ؟! حمل الشهيد وأمانته ؟ بقيت الحقيبة "الأمانة" هناك أسابيع وأشهر قبل أن أحسم أمري وأفتحها .

خلال تلك الفترة بدأت أعيد توطيد علاقتي مع بلال ابن عمي ، وكانت أسئلتي كلها عن عياش ، وكان هو يحب أن يتحدث عن عياش كثيراً ، فعياش كان طالباً في جامعة بيرزيت ؛ وهي جامعة بلال في تلك الفترة ، كان بلال ناشطاً في الحركة الطلابية الإسلامية التابعة لحركة حماس، يشارك في كل الفعاليات ، وكان أيضاً في عامه الدراسي الأخير ولم يتبقَّ على تخرجه

سوى عدة أشهر فقط.

كل هذه الأحداث جرت قبل أن تكمل الانتفاضة شهرها الأول ، في تلك الأثناء كنت أردد كلمات متشابكة تجسد حالتي التي وصلت إليها في حيرة من يبحث عن النور في آخر النفق ؛ ذلك النور الذي سوف أستدل به على طريقي وبداية المشوار .

فقلت الكلمات المتشابكة التي تعبت من ترددها على نفسي بصمت ، قلتها هذه المرة بصوت عال وأنا أقف على إحدى التلال المطلة على قريتي ، قلت :

لا تكن يا ابن غالب حمامة بسرب حمام * فهذا هو الذل والخزي والاستسلام**

وكن صقراً يحلق كالقسام * بسماء العزة وأرض الإسلام**

كن فارساً جواداً مقاوماً * وعزيزاً ذا نخوة كالمعتصم**

اضرب عدوك بقوة وداهم * كل وكر من أوكار الظلام**

فأنت نور الحق الهمام * وأنت شيخ المنبر والإمام**

اجعل عدوك يتجرع السم * فلقد عاث بالدنيا فساداً وظلم**

كن لإخوتك عوناً رحيماً * وكن على عدوك كنار الجحيم**

لا ترحمه واجعله يتألم * فلقد قتل الشيخ والطفل والأم**

اجعل القرآن بصدرك ختم * واقتدِ بنبيك سيد الكرام**

إن عز الزيت وانعدم * فدمك زيت يا ابن القسام**

دمك نور يا عز الإسلام * قاوم عدوك بقوة ولا تنهزم**

تقدم الصفوف وكن بالأمام * فأنت المصلي القائم تقدم**

تقدم اضرب عدوك وهاجم * وكن عليه بالرصاص كريم**

فأنت الجواد ابن الكرام * وهو الماكر الغادر اللوام**

ثق بنصر ربك فهو قادم * ولا تخش من عدوك فهو مهزوم**

كبر وهلل يا ابن القسام * وسر على درب العياش يحيى الهمام**

فإن استشهدت الجنة لك مقام * وإن انتصرت فالعزة لك يا ابن القسام**

عقدت العزم على أن أبدأ المقاومة وأن أسيرحاملاً لواء المهندس ، نزلت عن التلة وتوجهت إلى منزل عمي لأقابل بلال ولكي أبدأ مشواري .

عندما وصلت إلى منزل عمي وسألت عن بلال قيل لي أنه لم يأت إلى البيت منذ أيام طويلة ، وأنه يمضي وقته بين الجامعة بمدينة بيزيت ومدينة رام الله القريبة منها ولا يأتي للقرية ، لأن الطرق مقطوعة من قبل قوات الاحتلال ؛ والمواصلات صعبة جداً .

كان إيجاد بلال في تلك الفترة مشكلة بحد ذاتها ؛ فهو لا يملك جهاز اتصال نقال ولا مكاناً ثابتاً يسكن فيه ، ولأن بلال كان يحصر علاقاته في الجامعة إلا مع أبناء القرية بشكل عام ، لكني ولأني قد حسمت أمري بقتال الصهاينة كان واجباً عليّ أن أجده للأسباب التالية :

أولها : أن بلال ينتمي لكتلة حماس الطلابية في الجامعة ، وهو شخص هادئ وصامت وصادق .

ثانيها : لأني أثق به من الناحية الأمنية والأخلاقية ، فبلال لم يكن له أي اهتمامات سوى الدراسة والعمل التنظيمي .

وثالثها: وهو الأهم والأقوى هو أني استطعت أن أمسك بلال متلبساً وهو يقوم بإحدى أعمال المقاومة .

ففي أول أيام الانتفاضة قام بلال مع مجموعة من أنصار حركة حماس بكتابة شعارات على جدار القرية وأسوارها ، ولكن ما لم يكن في حسابهم هو أنه رغم قيامهم بهذه الفعلة في جوف الليل ؛ إلا أن إحدى كاميرات المراقبة المثبتة بشكل غير ظاهر على أحد المحال التجارية التابعة لي قد صورتهم ، ورغم أنهم ملثمون إلا أنهم كانوا يتحدثون ويذكرون أسماء بعضهم البعض ، ولسوء حظ بلال أنه كان المسؤول عن تلك المجموعة وكان ذا جسد ضخم بشكل واضح مما جعلني أتعرف عليه صورةً وصوتاً واسماً .

ولذلك كنت أريد بلال وأريد ما يملكه ، أما ما يملكه فلم أكن أملكه أنا ولم أستطع امتلاكه حتى بعد سنوات من قتالي ضد العدو الصهيوني .

وهنا عدت إلى منزلي ، قلعة أبي ؛ جدكِ ، لاستبدال سيارتي بسيارة أخرى قادرة على السير في طرق جبلية وعرة وطرق ترابية لأتمكن من الوصول إلى رام الله .

ما لا تعلمينه يا ابنتي الحبيبة ويا ملاكي الحارس هو أني كنت أملك في تلك الفترة عدداً من السيارات المتنوعة ، فالسيارات كانت إحدى هواياتي سواء بإصلاحها وتحديثها أو قيادتها ، وعندما أقول قيادتها أعني السرعة والاستعراض ، فلأني كنت أعمل ميكانيكياً في طفولتي ، ولأني كنت أمتلك كراجاً لصيانة السيارات بعد إنهائي للدراسة الثانوية الميكانيكية ، فقد كنت أمضي أوقات فراغي من العمل الذي كان قليلاً جداً في تلك الفترة ، كنت أمضيه بممارسة هواية سباق السيارات المعروفة باسم (Speed test) ولا أذكر أنه مرَّ شهر واحد عليَّ دون أن أتعرض للمخالفات المرورية بسبب السرعة الزائدة أو بسبب قيادتي بشكل متهور .

أما الأهم في موضوع قيادة السيارات فهو أني أصلاً لم أكن في تلك الفترة أملك رخصة لقيادة السيارة ، فلقد كان عمري ما بين الخامسة عشر والثامنة عشر ، ولكني وبسبب حبي للقيادة قمت بتزوير أول بطاقة في حياتي وهي بطاقة رخصة القيادة ، لم يكن تزويراً صعباً ؛ ولكنه لم يكن سهلاً أيضاً ، ولكني ما إن بلغت عامي الثامن عشر حتى استخرجت بطاقة لرخصة القيادة المحلية والدولية أيضاً ، ومع ذلك كنت في بعض الأحيان أضطر لاستعمال إحدى الرخص المزورة ؛ عندما يتم حجز رخصتي القانونية بسبب طريقة قيادتي .

ففي بداية عام ٢٠٠٠م قمت بشراء سيارة حديثة صنعت في نفس العام ؛ ولكني بدل أن أقودها أبقيتها لما يزيد عن شهر ونصف في إحدى محالي التجارية وهو محل يشبه الكراج ، كنت أقوم فيه بصيانة سياراتي ، وبعد مضي شهر ونصف كنت أنهيتُ تعديلاتي على محرك تلك السيارة وحولته إلى طاقة حصانية أعلى وأقوى ، واستبدلت عدداً من قطع تلك السيارة الجديدة التي لم تسر على الشارع بعد بقطع أخرى تحولها من سيارة عادية إلى سيارة رياضية قوية جداً ، لكنها خفيفة الوزن أيضاً ، فلقد أزلت منها عدداً من القطع التي اعتبرتها ثانوية وثقيلة وتضعف المحرك؛ مثل مكيف السيارة وكامل تجهيزات التدفئة ، ولك أن تتخيلي كيف أصبحت السيارة.

هنا يا ابنتي العزيزة أجد نفسي أقفز من ذكريات قديمة إلى ذكريات أقدم ، فموضوع السيارات وقيادتها كان هو السبب والدافع وراء تعلمي وإتقاني للتزوير ، في البداية كان تزوير رخصة القيادة ، ولكني بعد ذلك وعندما سافرت إلى كوريا أدركت أن جواز سفري الأردني غير مرحب به في العديد من الدول ، ولكي لا أبقيه عائقاً أمام رغبتي بالنجاح في المجال التجاري فلقد دخلت عالم تزوير الأوراق والبطاقات والجوازات، ولأني كنت لا أثق بأحد ؛ فلقد أخذت على عاتقي القيام بذلك لوحدي وبمساعدة أفضل الأجهزة الإلكترونية الخاصة بذلك المجال.

أما إن سألتني هل قمت بالاتجار بتلك الأوراق والهويات ؛ فأقول لك لا وألف لا ، فكل ما كنت أسعى إليه من خلال تلك الأوراق المزورة هو سهولة الحركة والتنقل ، وما ساعد على ذلك هو إجادتي لأربع لغات ، إجادة أبعدت عني الشكوك وسهلت علي انتحال تلك

الشخصيات ذات الجنسيات واللغات المختلفة والمتنوعة .

أعود بك يا ملاكي الحارس من تلك الذكريات البعيدة جداً إلى البحث عن ذكريات أقرب وهي البحث عن بلال ، استبدلت سيارتي بأخرى وانطلقت سالكاً الطرق الجانبية الترابية الوعرة باتجاه مدينة رام الله .

وصلت ليلاً فما كان مني سوى التوجه لمدينة القدس ؛ إلى شقتي هناك التي كنت ما أزال أحتفظ بها حتى تلك اللحظة ، رغم الدمار والخراب الذي شاهدته في طرق وشوارع مدينة رام الله ؛ إلا أن مدينة القدس لم يكن بها من ذلك الخراب شيء .

أمضيتُ ليلتي ساهراً ومبحراً في الشبكة العنكبوتية منطلقاً ومتلمساً متاهاتها ومكتشفاً مواقع العدو الصهيوني من خلال تلك الشبكة ومن خلال اقتحام مواقع شركات الاتصال .

نمت عدة ساعات وتوضأت متجهاً إلى الأقصى لأصلي صلاة الفجر ، وصلت ولكني لم أصلِّ ، وصلت للبوابة تلو البوابة لكني مُنعت من الدخول للصلاة رغم جوازي الأجنبي ، قالوا : " لا صلاة للمسلمين اليوم ، أغرب عن وجهنا " ، حاولت وجادلت وأصررت ولكنهم رفضوا وبأعقاب البنادق على جسدي انهالوا ، ورغم قوتي الجسدية إلا أن بنادقهم الموجهة نحوي مهددةً إياي ، وأعقاب بنادق أخرى خطّت آثارها على جسدي ، فما كان من ذلك الجسد إلا أن سقط أرضاً من شدة الألم ؛ سقط مضرجاً بالدماء .

حملني بعض من كانوا في المكان ممن لم يسمح لهم بالدخول للصلاة ، حملوني إلى

بيت قريب فضمدوا جراحي ، وتوقفت دمائي عن النزف ، بعد ساعات قليلة ودعتهم رغم ألم الجسد ، لعلي أتمكن من عقاب المحتل الصهيوني على ألم النفس والروح ؛ ألم الكرامة ؛ ألم أن أضرب وأمنع من أداء صلاتي لربي .

وهنا يا ابنتي الحبيبة سوف أضيف إلى قاموس كلماتي وقاموس كلمات المقاومة كلمة خاصة بي أنا وهي ، الكلمة التي أعتبرها الوصف الكامل المتكامل لما قمت به ؛ بل هي الدافع المجهول بالواجب الجهادي ، تلك الكلمة قد تمر عند البعض مرور الكرام ، فهي تعتبر ضعيفة ولا تعتبر من الكلمات الرنانة التي ترددها ألسنة الثوار والمواطنين مثل كلمة "الانتقام" ، وكلمة "الثأر" وكلمة "الإبادة والسحق" ، كلمة كانت أبسط من ذلك بكثير وأعمق من ذلك بكثير.

"العقاب" ، العقاب هو تلك الكلمة التي تصف ما أريد القيام به تجاه عدوي ، لا أريد أن أثأر لنفسي ولا للجرحى والشهداء ، ولا أريد أن أنتقم ؛ فالانتقام أعمى ويعمي صاحبه ، والثأر أعني ما هو إلا رد فعل سريع متهور ، وهنا أقول أن كل الثورات تمر بعدة مراحل :

أولها : البداية ، ويُطلِق البداية عادة إما شخص مجنون متهور أرعن وإما شخص عبقري حكيم .

ثانيها : الوقود ، فوقود الثورة إما أن يكون من أشخاص شجعان ذوي رؤية واقعية بالثورة والمقاومة ، وإما أن يكون من أناس بسطاء مشوا مع الموج دون أن يدروا وإذا بهم وقود للثورة وهذا هو حال الأغلبية .

ثالثها : الخاتمة ، وتختتم الثورة عادةً من قبل نوع واحد فقط لا غير ، نوع لا ثاني أو ثالث له ، وهو النوع الانتهازي المتسلط ؛ النوع الذي كان يرقص على دماء الشهداء من خلال تصريحاته النارية صباحاً ، وسكراً وعربدةً ليلاً .

ولذلك قررت أن أسلك طريق العقاب ، رحت أدمج بين المرحلة الأولى والثانية وأنا أدعو الله أن أستشهد قبل أن أصل إلى المرحلة الثالثة وهي نهاية الثورة والمقاومة .

عدت إلى شقتي بالقدس ، ومكثت فيها عدة أيام حتى التأمت جراحي نوعاً ما ، طوال تلك الأيام كنت أجلس على شرفة الشقة صامتاً هائماً في ملكوت الله ، أفكر بأي نوع من العقاب لأنزله بذلك العدو المحتل ، لم أقترب من جهاز الحاسوب ولا من أي جهاز آخر ، كل ما فعلته هو أني اقتربت من نفسي أكثر فأكثر ، فعرفت مكامن قوتي ومكامن ضعفي، فأدركت أن المال والعلم والقوة الجسدية لا تكفي وحدها لبدء المقاومة ولبدء السير على طريق المهندس.

❀ ❀ ❀

عدتُ إلى رام الله باحثاً عن بلال ، علمت أنه هناك بمنطقة اسمها "البالوع " بإحدى طرق رام الله ، هناك كان يلقي الحجارة هو وعدد من أصدقائه في الجامعة ، هناك بمنطقة البالوع كان مئات الشبان والشابات والأطفال يلقون الحجارة .

أوقفت سيارتي على إحدى التلال المطلة على ذلك الموقع فشاهدت كم نحن الفلسطينيين طيبون مساكين ! بل كم نحن طيبون لدرجة البلاهة والسذاجة ! في ذلك اليوم وبسبب ما شاهدته قررت ورسمت من داخل سيارتي وأنا جالس بداخلها جسدياً وخارجها روحياً ، قررت أصول المعركة !

في ذلك اليوم كان ملقو الحجارة عدة مئات يلقون ويلقون ؛ أما الجنود فكانوا عدداً قليلاً جداً لا يتجاوز الاثني عشر جندياً فقط ، محاطين بالتلال وبجيبات عسكرية ، لم يكن الحجر قادراً على الوصول لأولئك الجنود رغم قوته وقوة من يقذفه ، فالمسافة بينهم كانت كبيرة جداً ، أما رصاص قناصة الاحتلال فكان يصل ، فسقط العشرات جرحى وقتلى ، دون أن يصاب جندي واحد ! ومن خلال جهاز المنظار الذي كان بحوزتي أقسم أني كنت أشاهد الجنود يضحكون ويمرحون ؛ وشباب الحجارة يتألمون ويُقتلون .

حلت ساعات المساء فتفرق الشباب بين شهيد وجريح ومرهق ، وعادوا إلى بيوتهم بعد أن أقسموا على الرجوع في اليوم التالي ، لم أر بلالاً لكني رأيت قريباً لي يمشي مع عدد من أصدقائه ؛ فسألته عن بلال فقال لي أنه لم يأت اليوم كعادته ؛ بل عاد إلى القرية ليستجمع قواه فلقد تعب من المواجهة المستمرة منذ عدة أسابيع ، عرضت عليه أن أوصله للقرية فقال لي أنه

يريد البقاء بمدينة رام الله ، فودعته وانطلقت عبر طريق فرعي ترابي وعر عائداً وحدي إلى قريتي بيت ريما ، متوجهاً إلى منزل عمي ، هناك وجدته جالساً لوحده هائماً في ملكوت الله .

جلست بجواره وبدون مقدمات ، قلت له : **" ألم تتعب من إلقاء الحجارة طوال الانتفاضة الأولى عندما كنت طفلاً وعندما أُصبتَ وفقدتَ إحدى كليتيك؟ أو أنك تريد مواصلة إلقاء الحجارة في هذه الانتفاضة أيضاً ؟ ألا تريد أن تعاقب من سلب منك أرضك؟"** ، صمت قليلاً ، وقال : " أنت يا عبد الله مسكين ، جئت من خارج فلسطين ولا تدرك كم نعاني من نقص في كل شيء ؛ بل حتى أننا لا نملك شيئاً من أجل مقاومة الاحتلال سوى الحجارة ؛ الحجارة فقط هي ما نملكه ولا شيء سواها " ، قلت : **" قل لي ماذا تقصد بسواها ؟ "** ، صمت وقال: "كل شيء ؛ كل شيء" ، قال لي : " أتعلم أنه رغم أني في عامي الرابع والأخير من دراستي في الجامعة لا أملك ثمن أجرة الحافلة للوصول إلى جامعتي وإلى رام الله لألقي الحجارة ؟! كيف تعلم وأنت تملك بدل السيارة ثلاثاً بل أربعاً ! " ، صمتَ قليلاً وأكمل : " نريد قائداً يعدّ الخطط ويرسمها ويقود المقاومين إلى دروب الجهاد والمقاومة " ، صمت طويلاً جداً ، فقلت له : **"حسناً ماذا تملك أنت؟"** ، فكرر: " قلت لك لا شيء ؛ لا شيء أبداً أبداً ! " .

قلت له : **" ألا تملك الرجال ؟! الرجال القادرين على مواجهة المحتل بصدور عارية ؟! ألم تكن قبل أسابيع تقود أولئك الشبان لتملؤوا جدران القرية بالشعارات ليلاً ؟ "** ، صمتَ ، فقلت له : **" لقد رأيتك أنت من قادهم ومن ملأ جدران القرية بأقوى الشعارات التي تنادي بالمقاومة المسلحة ، ألم تكتب أن بركان القسام قادم ؟! "**.

ودّعته بعد أن طال بنا النقاش وبعد أن أدركت أن بلال البرغوثي هو الرجل المناسب لكي أضع يدي بيده ولكي يبدأ المشوار .

لم أعد إلى بيتي تلك الليلة ولم أعد طوال عدة ليالٍ أخرى أمضيتها وأنا أعمل ليلَ نهار في إحدى محالي التجارية بعد أن أغلقت بابه عليّ ومكثت بداخله لأبدأ المشوار ، مشوار المهندس عبد الله البرغوثي ، لأبدأ من تلك النقطة التي استشهد منها سيد مهندسي فلسطين يحيى عياش .

يحيى عياش – رحمة الله عليه – استشهد عندما فجر جهاز الشاباك الصهيوني هاتفاً نقالاً كان يتحدث به عياش ، فُجّر هذا الهاتف بعد أن سُمِعَ صوت عياش وهو يتكلم ، فُجّر عن بعد ، وكان هذا الهاتف قد وصل للمهندس عياش عن طريق صديق حصل عليه عن طريق شخص آخر كان عميلاً لجهاز الشاباك ، تلك التفاصيل لم تكن تهمني، ما يهمني هو جهاز الهاتف النقال ، كان جهازاً كبيراً ضخماً ثقيل الوزن ؛ وكان هذا هو حال تلك الأجهزة في تلك الفترة ، لذلك حصلت على أصغر جهاز متداول من الهواتف النقالة عبر إحضاره من دبي لكي أحاول تفخيخه وجعله ينفجر عندما أسمع صوت من يتحدث به ، لكني لم أنجح بل إني زدتها تعطيلاً قبل أن أتمكن من إخضاعه لأوامري ، وكلمة **"إخضاع"** هي الكلمة المناسبة لهذه الحالة ، وكما هي العادة لم أكلّ ولم أملّ ؛ بل قمت بشراء عدد آخر من نفس نوع الجهاز وبشراء أجهزة من نوع خاص يستعمل من قبل الشركات المصنعة لذلك الجهاز من أجل الفحص والصيانة .

ما هي إلا أيام حتى تمكنت من إخضاع جهاز الهاتف النقال لأوامري وطلباتي ، وبعد ذلك قمت بصناعة عدد متنوع من العبوات الناسفة والألغام المتفجرة والقنابل اليدوية وعدد من

العبوات الناسفة المستعملة في عمليات الاغتيال .

وهكذا حولت ما قد كتبت على ورق من معلومات ؛ وما كان داخل عقلي من خبرة سابقة؛ وحولت تلك الأدوات التي أدخلتها معي إلى فلسطين قبل قرابة العامين عندما قدمتُ من عمّان ، حولت كل ذلك إلى واقع ملموس .

طوال تلك الفترة من العزلة في داخل المستودع الذي لم أكن أتركه إلا من أجل شراء أدوات أو معدات وطعام وشراب ، كانت عيناي تسترق النظر من بعيد إلى حقيبة المهندس يحيى عياش التي كانت موضوعة على أحد الرفوف العالية في المستودع ، ودون مقدمات وجدت نفسي أنزلها من هناك وأفتحها ، بعد أن قلتُ بسم الله الرحمن الرحيم فتحتها ، كان في داخلها عبوتان ناسفتان مصنوعتان من الحديد الصلب ؛ وكانتا معلقتان في جوانب بمادة الإسمنت الأسود ، وكان يخرج من أحد أطرافها سلك زوجي أبيض مصنوع من النحاس الذي قد تآكل وتلف بسبب الرطوبة وطول مدة التخزين ، وكان هناك ورقة تدل على طريقة الاستعمال ، أما الأهم فهو القرآن الكريم ، كان هناك مصحف قد كُتب على صفحته الأولى : **" كن مع الله ولا تبالي "** !

قمت بتفكيك العبوات الناسفة بحذر بعد أن عملت على تجميدها بواسطة ثلاجة لتجميد اللحوم كانت موجودة لدي بالمستودع ، وبعد ذلك فككت العبوتين الناسفتين ، فوجدت داخل كل واحدة منها مجموعة من المسامير في كل طرف من الأطراف ، وفي المنتصف وجدت كيساً بلاستيكياً مملوءاً بمادة تعرف باسم "أم العبد" ، عرفت اسمها فيما بعد .

في أحد الأيام التي قضيتها في المستودع صليت الفجر بمسجد القرية ، وعندما كنت عائداً وجدت حماراً أبيض اللون ، حماراً سبق أن أشعل أحد الصبية قبل أشهر النار في ذيله فأصبح بلا ذيل ! وما أن اندلعت الانتفاضة حتى كتب أحد الفتيان كلمة " الموت لشارون " على جانبيه ؛ فأصبح اسم ذلك الحمار منذ ذلك اليوم " حمار شارون " !

لمعت في رأسي فكرة فأمسكت بـ"حمار شارون" وسُقتُه إلى المستودع ، ومن هناك أخذت أحد الهواتف النقالة المفخخة وذهبت راكباً الحمار إلى إحدى قطع الأرض التي يمتلكها والدي وهي أرض على أطراف القرية المزروعة بشجر الزيتون واللوز ، هناك وضعت الهاتف على رأس شارون الحمار وثبّته جيداً ومن هاتف آخر اتصلت به ففُتح الخط بشكل تلقائي ، وبعد أن ابتعدت عن شارون الحمار ، أقصد "حمار شارون " استمعت لصوت أنفاسه عبر الجهاز الآخر الذي كان معي ؛ وهنا أصدرت الأمر من جهازي لينفجر الجهاز الآخر وينفجر معه رأس شارون الحمار .

ولقد كانت تلك أول تجربة حية أجريها في فلسطين ؛ وهكذا أصبح شارون بلا رأس ! فرغم صغر جهاز الهاتف إلا أن المادة التي زرعتها بداخله كانت قوية جداً ؛ بل كانت قوية أكثر من اللازم .

جمعت أشلاء الحمار وكومت كومة كبيرة من الحطب حوله ، كان والدي قد طلب مني سابقاً إحضارها من هناك قبل أيام طويلة لكني لم أفعل لانشغالي ، وقمت بإشعال النار وهكذا اختفت آثار هذه التجربة .

بعد ذلك عدت إلى القرية ماشياً على قدميّ ؛ عدت إلى منزل ابن عمي بلال فوجدته نائماً يحلم بالمقاومة ، فأيقظته لأحول حلمه إلى واقع حقيقي ملموس ، فبلال البرغوثي كان مسحوراً مفتوناً بالشهيد عياش مثل العديد من أبناء حركة حماس ، كانوا يحلمون بمهندس يعيد للمقاومة عزها ومجدها ، ففي تلك المرحلة أي قبل الانتفاضة الثانية ؛ انتفاضة الأقصى ، كانت أجهزة أمن السلطة الفلسطينية تتسابق بل كانت تتبارى باعتقال كل من يمتّ لحركة المقاومة الإسلامية حماس بصلة ، وهكذا كانت الحركة واقعة بين مطرقة المحتل وسندان عملاء ذلك المحتل ، ما بين الوقائي والمخابرات من جهة ، وما بين الشاباك الصهيوني من جهة أخرى .

أيقظتُ بلال لأحول حلمه وحلمي إلى واقع ملموس ، توجهنا إلى مستودعي وهناك وضعت عدة حقائب داخل سيارتي التي كانت هي الأخرى داخل المستودع ، ركبت وركب هو، قلت له : **" لا تتكلم ولا تسأل ، انظر وشاهد فقط لا غير "** ، وصلنا إلى قطعة أرض أخرى تعود لوالدي وكانت تلك القطعة تقع على الجانب الآخر من القرية ، أوقفت السيارة وحملت الحقائب وسرنا على الأقدام حتى وصلنا إلى الأرض ، فلم تكن السيارة قادرة على خوض الطريق الوعر المؤدي إليها ، وما إن وصلنا حتى بدأتُ أخرج العبوات الناسفة الواحدة تلو الأخرى ، بلال كان صامتاً وأظن أنه كان يظن أنه ما زال يحلم ؛ فلم يكن يقول سوى : " الله أكبر أهذا حلم أم حقيقة ؟! " ، فجرت إحدى العبوات بجوار سور صخري فأصبح السور أثراً بعد عين ، وفجرت عبوة موقوتة بمبنى كان يستعمله والدي لتخزين أغراضه فأصبح مكان المبنى حفرة كبيرة ، فجّرتُ وفجّرتُ، وهو يكبّر تارةً ويفرك عينيه تارةً أخرى ، بعد ذلك أشرت له بالانتقال لمكان آخر بعد أن جمعت ما يفي من أدوات إلكترونية بعد الانفجارات .

وهكذا أقلّتنا السيارة ولكننا لم نعد إلى القرية ، بل توجهنا إلى سيارة قديمة قد أُلقيت على الطرقات الجانبية من القرية ، هناك وضعت عبوة أسفلها وعن طريق جهاز التحكم عن بعد قمت بتفجيرها ؛ فانفجرت واستيقظ بلال على صوتي وأنا أقول له : **" اسمع يا بلال لما سوف أقوله لك بعد أن رأيتَ ما رأيتَ قبل قليل "** ، وقصصت عليه قصتي كاملة من أولها إلى آخرها ، وهكذا قررنا أن نتعاون معاً لنكون نواة لخلايا كتائب عز الدين القسّام في جامعة بيرزيت برام الله وفي كل مكان نستطيع الوصول إليه .

رغم أن بلال كان يقاوم المحتل منذ أعوام وأعوام إلا أنه لم يكن قد أمسك بالسلاح أبداً، وهذا شيء أذهلني جداً فأخذته بنفسي ذلك اليوم إلى المكان الذي فقد فيه شارون رأسه وأعطيته قطعة سلاح بعد أن دربته وعلمته على طريقة استعمالها ، وهناك على حمار شارون الذي كان الدخان ما زال يتصاعد منه رغم مرور ساعات على إحراقه ، بدأ بلال يطلق النار لأول مرة في حياته من سلاح ناري .

وعلى الفور اتفقت مع بلال على أن ينتقي عدداً من الأشخاص من أبناء الكتلة الإسلامية بجامعة بيرزيت وغيرها للبدء بتشكل خلايا مسلحة لكتائب عز الدين القسام .

بدأت أدرّب بلال على قيادة السيارات وعلى استعمال أجهزة الهاتف النقال ، وزوّدته بعدد منها وبالمال اللازم لنبدأ المشوار ، أما أنا فلقد كنت منشغلاً بأمور أخرى مثل الحصول على الأجهزة اللازمة من أجل عمل بطاقات هوية مزورة ، ومثل استئجار عدد من الشقق بمدينة رام الله وغيرها من المدن ، وكنت أقوم بتجهيز كل شقة من تلك الشقق بكل ما يلزم من أجهزة كهربائية وأثاث ، أما الأهم فهو أني كنت أحول كل شقة من تلك الشقق إلى مركز قيادة متنقل بشكل كامل ؛ بحيث أني كنت أخصص غرفة لتكون مكاناً لصناعة العبوات الناسفة والأدوات اللازمة لذلك ؛ وغرفة أخرى لتكون مكتباً للأمور التقنية ، وأهم ما في ذلك أن كل تلك الشقق كانت على أسماء أشخاص وهميين من جهة وحقيقيين من جهة أخرى ! فعبر اقتحامي للشبكة العنكبوتية استطعت الحصول على معلومات عن عدد كبير من بطاقات الهوية المسجلة في دائرة الجوازات الفلسطينية التابعة لوزارة الداخلية ، وهكذا كنت أصدر بطاقات ذات معلومات

حقيقية مئة بالمئة ؛ إلا أنها لم تكن تحمل صور أصحابها بل صور عبد الله البرغوثي! صوري أنا ! فأنا الذي كان يتوجه لأصحاب الشقق من أجل استئجارها والحصول على عقد الإيجار الذي يسجل باسم شخص آخر .

لم أكن أختار أناساً بشكل عشوائي ؛ بل كنت أنتقي أصحاب المهن البعيدة عن الشبهات مثل مهنة الطبيب المسيحي مثلاً أو الصيدلاني ابن طائفة السمرة بنابلس ، وأكثر ما كنت أستعمل كانت مهنة المحامين ومعلمي المدارس .

أما ما يخص الهويات التي كنت أستعملها للتنقل بين المدن ؛ فلقد كنت أستعمل هويات من نوع آخر ، هويات مقدسية أو هويات لأبناء الطائفة الدرزية وبخاصة لأولئك المنخرطين في صفوف جيش الاحتلال الصهيوني ، ولكي أسهّل تنقلي اشتريت عدداً من السيارات ذات اللوحة الإسرائيلية الصفراء ، وبذلك كنت أتنقل بسهولة جداً بين المدن الفلسطينية في الضفة الغربية وبين القدس والمدن المحتلة داخل فلسطين مثل تل الربيع (تل أبيب) وغيرها .

وهنا يا ابنتي الحبيبة ويا ملاكي الحارس أصبحت أكرّس كل وقتي لإعداد البنية التحتية للمقاومة ، مما جعلني أبتعد عنك وعن والدتك كثيراً ، بل إن جدك بدأ يشك وبدأت تلوح بين عينيه أسئلة كثيرة جداً ، وخاصة أنه في أحد الأيام وبينما كنت في مدينة نابلس دخل على أحد المستودعات التجارية لتفقده بسبب انقطاع التيار الكهربائي فوجد الأطعمة المحفوظة في الثلاجات قد تلفت ، فأخرجها وألقاها في حاوية القمامة ، أما الأهم فهو أنه ألقى مواداً متفجرة كانت محفوظة في علب مغلقة بتلك الثلاجات ، ولولا ستر الله عز وجل لحدث ما لا يحمد

عقباه ، ووجد جدك في ذلك المستودع عدداً من قطع السلاح مخبأة بحقيبة على أحد الرفوف ، مما جعل ناقوس الخطر يدق عند جدك ، وكما سبق أنه انتظرني عند مدخل القرية قبل أعوام خوفاً عليّ من أن أكون قد اعتقلت عندما دخلت فلسطين ؛ انتظرني هذه المرة بعد أن أدرك أني قد سرت على درب طالما حلمت بأن أسير عليه ، وما إن عدت حتى قال لي : " أهلاً بالسيف ، أهلاً وسهلاً بالسيف ، ألم أقل لك أن السيف لا يمكن أن يصبح محراثاً أبداً " ، علمت منه ما قد حصل ؛ فتوجهت مسرعاً لحاوية القمامة لأستعيد المواد المتفجرة التي وبحمد الله عز وجل وجدتها على حالها .

قلت له : **" اسمع يا والدي ، لقد آن الأوان لأخوض المعركة التي طالما حلمت بها وتمنيتها ، ادعُ لي بالتوفيق والنجاح ، فأنا يا والدي قد قررت أن أترك هذه الدنيا الفانية وأقاتل لعلي أسقط شهيداً أو أنتصر ، المهم يا والدي هو أني واثق بإذن الله أني قبل أن أصل لإحدى الحسنيين ؛ سوف أُسقط العشرات والعشرات من قتلى العدو ، يا والدي أنت كنت تنوي السفر إلى عمّان بعد موسم الزيتون والموسم قد انتهى ، فسافر يرعاك الله ولا تنسني من الدعاء "** .

ودّعني والدي وسافر إلى عمّان ، أما أنا فلقد قلت عدة جمل ؛ قلتها أهجو الدنيا ؛ دنيا الفناء :

عودي أو لا تعودي فلست مبالياً * ما عاد قلبي يحبك معلقاً**

وما عدت بعشقك هائماً * فأنت الوهم لا الحقيقة حتماً**

فزوالاً مصيرك حكماً * ألم يهبط إليك آدم**

من جنة الخلد ماشياً * لما قطعت يده تفاحةً**

فأنت الدنيا وأنا لست بقاطع * من متاعك الحقير شيئاً**

فلقد وهبت روحي لربي موحداً * قاصداً الجهاد والشهادة مسلحاً**

فأنا بحب كتائب القسام متيم * وبعشق فلسطين والقدس مغرم**

ودرب جنة الخلد قاصداً * وعلى ترك دنيا الفساد عازماً**

فأعني يا ربي وكن لأمري ميسراً * وأدخلني جنتك صائماً مصلياً**

ربي رفعت يديّ لك داعياً * فأنت رب الخلق ورب محمد**

فاجعل القرآن بقلبي حرزاً * وسنة المصطفى نبيك منارةً**

فبلا عونك أعود عاصياً * لدنيا الفساد والإفساد مخالفاً**

فأوصلني لدرب المقاومة قوياً * فأنا بالشهادة وبجنة الخلد مبشراً**

ما إن وصل والدي لعمّان ، حتى قمت ببيع المحال التجارية التي كنت أملكها وبتصفية كافة أعمالي التجارية ، ولم أكتف بذلك بل سحبت كل ما كنت أملكه من مال في البنوك ، وفتحت حساباً مصرفياً خاصاً لزوجتي ووضعت فيه بعض المال الذي يكفي لها و لك يا ابنتي لكي تحيوا حياة كريمة إذا ما استشهدت .

في تلك الأثناء كان بلال قد انتهى من انتقاء عدد من العناصر المناسبة لنبدأ مشوارنا بدرب الجهاد والمقاومة ؛ درب عياش والياسين ؛ درب عز الدين القسام ، من خلال كتائب عز الدين القسام .

وهنا أقول لك يا ابنتي يا ملاكي الحارس أني لن أخوض في تفاصيل هذه الفترة لأسباب عديدة منها أني يا ابنتي أمضيتُ ستة أشهر كاملة في زنازين التحقيق دون أن أكشف عن أي شيء عن تلك الفترة التي امتدت لأعوام ، ولكني وقبل أن أُعتقل كنت قد حصلت على ما يسمى لوائح الاتهام التي قدمت بحق من عملوا معي ، فأنا يا ملاكي الحارس قد رأيت الموت وكلمته وصارعته في جلسات التحقيق التي كُسرت خلالها عظامي ؛ ولكن لم تكسر بها بوابة الدخول لأسراري ، تلك الأسرار التي لا زلتُ أقبع هنا في زنزانة العزل الانفرادي الجائر لأني ما زلت أحتفظ بها مدفونة في عقلي ، ومنذ أن توقف التحقيق معي لكنه لم ينتهِ منذ قرابة أعوام عشر ، فأنا يا ابنتي متَّهم من قبل قوات الاحتلال بأني قمت بتنفيذ مئة وثمانية عشر عملية ضد العدو الصهيوني خلال مشواري الجهادي ، بل إني خلال الأعوام الماضية تم اقتيادي للتحقيق أربع مرات على عدد من القضايا الأمنية الجهادية التي حدثت بعد أسري بادعاء أن لي يداً بها ! رغم وجودي في العزل الانفرادي الخاص إلا أني ما زلت حالة خاصة جداً في نظر ذلك العدو الصهيوني ! حالة مستمرة بالمقاومة رغم الأسر ؛ رغم أنف السجّان ورغم أسوار السجن! فهناك يا ابنتي عدد من الملفات الأمنية التي لم تقفل بعد ولم يتمكن عدوي وعدو فلسطين من حلها بعد وكشف أسرارها ، وبإذن الله لن يتمكن .

أما ما سوف أتطرق إليه خلال كتابتي لك فهو يخص بعض أهم المراحل المفصلية التي مرت بها كتائب القسّام بالضفة الغربية والقدس الشريف ، تلك المراحل التي تمكنت خلالها الكتائب من تمريغ أنف العدو بالوحل ، وهي أيضاً من رفعت اسم ومصداقية حركة حماس عالياً في السماء ، وأعادت لها مجدها ومجد يحيى عياش .

وهنا سوف تختلف طريقة كتابتي عن السابق بحيث لا تصبح سرداً للأحداث ، بل إضاءات على واقع ومراحل قد مرت معي ، وهنا سوف أسمي كل مرحلة باسم من أضاءها ، سواء كان شهيداً أو أسيراً أو محرراً أو كان بلا اسم ظلّ حراً ولم يعتقل ولم يستشهد ، وسوف تكون أول تلك المراحل هي التالي :

الشهيد القسامي البطل عز الدين المصري

وهنا قبل أن نصل للشهيد عز الدين المصري يجب أن نسلط الضوء على طريق وعر نوعاً ما ؛ فبعد أن نفّذنا عدة عمليات خاطفة ضد العدو عبر الخلايا التي عملنا على تشكيلها أنا وبلال البرغوثي ، طلبت من بلال أن يوصلني لمسؤولي القسّام بمختلف مدن الضفة الغربية والقدس المحتلة ، فكان من أولئك المسؤولين مهندس فذ وذكي بل عبقري اسمه "أيمن حلاوة" وكان هذا المهندس قد تحرر من الأسر منذ مدة قصيرة جداً ، ولم يكن قد شارك بالعمليات المسلحة ، إلا أنه ومع اندلاع الانتفاضة بدأ العمل مع عدد من أصدقائه الأسرى المحررين أمثال المجاهد البطل العنيد "سليم حجي" وكذلك المجاهد "علي علان" ابن مدينة بيت لحم ، فذهبت إلى مدينة نابلس لألتقي بسليم حجي الذي صحبني للقاء أيمن حلاوة ، كنت أرغب من خلال ذلك اللقاء أن أنقل الخبرة الموجودة لدي إلى الإخوة في مختلف المناطق ، وهكذا اجتمعت مع أيمن حلاوة واستعرض أمامي إمكانيات الحركة في تلك الفترة بمدينة نابلس ، فكانت صدمتي كبيرة جداً ، فرغم أني كنت أمام مهندس عبقري بكل ما تحمل الكلمة من معنى ؛ مهندس فذ ذي موهبة واضحة جداً ، إلا أنه بسبب مكوثه لمدة طويلة جداً في الأسر الصهيوني ، كان قد ابتعد عن الأمور التقنية الحديثة وظلّ يستعمل نفس المواد والأدوات التي استعملها يحيى عياش قبل استشهاده .

وسرعان ما تمكن أيمن حلاوة من مجاراتي ، بل والتفوق علي بما صنعتُه وابتكرتُه ، فلقد

كان سريع التعلم وسريع البديهة ، فما أن كنت أريه مخططاً إلكترونياً حتى يقوم بفك رموزه وجمع خيوطه ، وهكذا تمكنت بفضل ذكاء المهندس أيمن حلاوة من نقل كل خبرتي في مجال الصناعات العسكرية لعدد كبير من أبناء المناطق المحيطة بمدينة نابلس .

أما أيمن حلاوة فلقد قال لي بعد أول لقاء : " أستحلفك بالله يا عبد الله ؛ هل أنت تنتمي لهذا العالم أم لعالم المستقبل؟! قل لي بالله عليك هل أتيتَ إلى نابلس عبر آلة الزمن؟! " ، فما كان مني سوى أن ابتسمتُ وقلت له : **" أنا ابن هذا الزمن ؛ ولكني لست ابن هذا المكان "**، فقال: كيف؟ قلت: **" أنا لم أولد هنا ولم أتعلم هنا ؛ فقد وُلدت في الخارج ودرست الهندسة في كوريا واستقيتُ علومي من بحر مراكز البحوث العلمية ومن شبكة الانترنت ، أما أنت يا صديقي فلقد منعتك قيود الأسر وقضبان السجن من أن تكمل ما بدأته في جامعتك ، وهذا هو الفرق بيني وبينك ، ولكنك خلال أيام معدودة استطعت اللحاق بي ؛ بل استطعت تجاوزي فأنت مهندس مجتهد ، أما أنا فمهندس كسول لا أجتهد إلا إذا واجهت مشكلة وعند ذلك أجتهد لأجد لها حلاً ، حتى أني لا أنام أياماً طويلةً حتى أجد الحل "** ، فقلت له : **" أعطيك مثالاً ؛ ما هي أكبر مشكلة تواجهها أنت وتعتقد أن حلها صعب بل أن حلها مستحيل ؟ "** قال: " حالياً ومع ما زودتني به لا أظن أن هناك أي مشكلة من هذا النوع ، أما إن سألت عن مشكلة أبحث لها عن حل فهناك واحدة أبحث لها عن حل منذ أعوام وأعوام " ، وأشار إلى إحدى الأوراق أمامه ، قال : " هذه الورقة هي المشكلة ! "، وأكمل : " كيف أستطيع إرسال هذه الورقة التي كتب عليها أحد البيانات التي قمنا بها في عملية الأمس دون أن يكشف أمرنا ؟ حيث يوجد بجوار كل وكالة للأنباء ألف عميل وعميل ، وألف رجل أمن من رجال جهاز الأمن الوقائي والمخابرات ، قل

لي هل تستطيع جعل من يوصل هذا البيان خفياً لا يُرى ؟ هل تملك طاقة تمكننا من أن يصبح شبحاً ؟ " ، ضحكت وقلت : **" طبعاً أملك، ألا تعلم؟! "** ، ضحك هو ولكنه سرعان ما أدرك أني لم أكن أمزح فقال : " كيف؟ وعن أي طاقةقة تتحدث؟ " ، قلت : **" أعود لك بعد أسبوع أو اثنين وأحضر لك الحل والطاقة "**.

ودعته ولكنه استوقفني على الباب وقال: " بالله عليك عندك الحل؟" ، قلت : **" ادعُ الله عز وجل أن أجد الحل ، دلني على محل يبيع القهوة لأني أظن أني سوف أحتاجها لتعينني على سهر الليالي القادمة "** ، صافحته وتوجهت من مدينة نابلس جبل النار إلى مدينة رام الله ، رام الله التي أصبحت وكراً لسلطة الفساد والإفساد ، وكراً للأجهزة الأمنية .

في تلك الفترة لم أكن مطارَداً أو مطلوباً ولذلك كانت حركتي سهلة جداً ولأني معروف على أني أقوم بالتجارة فلم يكن تنقلي يثير الشبهة لدى تلك الأجهزة الأمنية ، حتى بعد أن صفّيتُ أعمالي فلم يُثِر ذلك شكوكهم نحوي .

طوال الطريق كنت منشغلاً بالتفكير لإيجاد حل لتلك المشكلة التي لم أجد وقتاً طويلاً لإيجاد سيناريو حلها ، بل أن سيناريو حلها ومض في رأسي أثناء حديث أيمن عنها وهو جهاز الفاكس.

ولكن كيف أحول جهاز الفاكس من جهاز معلوم مكان إشارة إرساله إلى جهاز مجهول مكان إرساله ومجهول الهوية؟ عدت بعد أقل من أسبوعين لأقابل أيمن في نابلس ، هناك على الطاولة أخرجت حقيبة كانت على كتفي؛ جهاز فاكس صغير الحجم ووضعته أمام أيمن حلاوة،

ابتسم بعد أن قلّب الفاكس بين يديه وقال : " الله يسامحك ؛ ألا تعلم أنه بمجرد أن نرسل رسالة واحدة من هذا الفاكس سوف يتم مداهمة المكان الذي أرسلت منه من خلال معرفتهم رقم الهاتف عبر أجهزتهم الإلكترونية التي يستعملها جهاز الشاباك؟" ، قلت له : **" هذا الفاكس لا يحتاج لخط هاتف كي يرسل الرسائل ، بل لا يحتاج لأن يوصَل بالكهرباء المنزلية أصلاً ، كل ما عليك عمله هو وضع أي ورقة بداخله وهو سوف يرسلها بشكل آلي فوري إلى اثنتي عشرة وكالة أنباء دون أن يتمكن أحد من تعقب مكان وجوده ومكان وجود المرسل ، بل إنك إن أردت أن يعمل الفاكس بشكل متنقل فكل ما عليك فعله هو وضع الرسالة بداخله وتركه يعمل لوحده في الوقت الذي نحن نعمل على برمجته فيه "** .

قال لي: "بالله عليك ألم تأتِ إلى نابلس عبر آلة الزمن؟ ألم تأتِ إلى هنا منذ عام ٢٠٥٠ أو ٢١٠٠ ؟ " ، فقلت : " لا بل أتيت من تل الربيع هناك وجدت جهاز فاكس يعمل بالطريقة التي يمكنني التعديل عليها ، فهو لا يحتاج لكمّ كبير من التيارالكهربائي ولذلك قمت بجعله يعمل عن طريق البطاريات ؛ ولكن ليس هذا هو المهم ، المهم هو أني وعبر جهاز آخر استطعت وصله بجهاز الفاكس ، وحولت إشارة بطاقة الهاتف الجوال إلى إشارة تستعمل في نظام الهاتف الأرضي ؛ ولذلك فإن كل ما يلزمنا لتشغيل جهاز الفاكس بطارية وهي موجودة بداخله وبطاقة هاتف جوال توضع بداخله ، وهكذا تكون حصلت على طاقة الإخفاء ، المهم أن تكون بطاقة الهاتف الجوال مجهولة المصدر وهذا سهل ، أما الأهم هو أن تستبدل تلك البطاقة بعد كل استعمال ، لكي لا يتم تعقبها ، أي مرة واحدة فقط ، وأن نرسل الفاكس من مكان عام بحيث تبرمجه وتضعه في حقيبة شخص متحرك في أي من الشوارع المزدحمة ؛ وبذلك تبقى بعيداً عن

رصد أجهزة العدو لرسائلك ، وكما يقال الحاجة أم الاختراع ، فالحاجة لجهاز الفاكس كانت الدافع لصناعته واختراعه ، وكان ذلك قد حدث في نهاية عام ٢٠٠٠ " .

أما ما حدث قبل ذلك فأعتقد أنه أكثر أهمية ، ففي عام ١٩٩٠م أي قبل عشرة أعوام من موضوع الفاكس وقبل اثنين وعشرين عاماً من عام ٢٠١٢م عامنا هذا الذي أكتب فيه هذه الومضات ، فلقد كان عمري في عام ١٩٩٠م سبعةَ عشر عاماً ، ولم أكن قد أكملت عامي الثامن عشر ، كنت قد أردت إنشاء ورشة لصيانة السيارات وتصليحها ، ولكني لم أكن أملك المال اللازم لكي أستأجر الورشة رغم أني استدنتُ بعض المال إلا أنه لم يكفِ ، فلقد كانت الورشة تقع في مجمع تجاري وصناعي جديد ؛ وكان صاحب المجمع من ذلك النوع البخيل الانتهازي فما كان أمامي من حل سوى أن قمت بصناعة جهاز للتنصت ولاستراق السمع ، وضعت هذا الجهاز صغير الحجم داخل علبة كبريت وألصقتها أسفل مكتب صاحب المجمع ؛ وبهذه الطريقة استطعت أن أحصل على المعلومة التي مكنتني من استئجار الورشة بالسعر المناسب ، السعر الذي تستحقه لا أكثر ولا أقل .

الحاجة أم الاختراع، أما الحاجات التي أصبحت بحاجة إلى حلول فلقد كثرت جداً ، وجعلتني لا أجد وقتاً حتى للنوم ؛ فلقد كنت وطوال عدة أعوام لا أنام سوى خمس أو ست ساعات ، وطوال تلك الفترة كان طعامي يقتصر تقريباً على السندويتشات الجاهزة ، أما ما كان يزعجني في تلك الفترة ؛ فترة تلبية الحاجات ، فهو أداء الصلاة ؛ نعم أداء الصلاة ، فلقد كان عقلي مشغولاً جداً مما كان ينسيني عدد الركعات التي صليتها أو نسيان ماذا قرأت من القرآن

الكريم ، وكنت كثيراً ما أعيد الصلاة مرة أو مرتين حتى أتأكد من أني أديتها بشكل صحيح .

لقد كبرت في تلك الفترة المسؤوليات التي ألقيت على عاتقي ، فلقد كنت دائم البحث عن مصادر لشراء السلاح والعتاد بمختلف أنواعه ، وكنت دائم البحث عن شقق ومخازن تجارية لاستعمالها للسكن ولتخزين المواد الناسفة والسلاح والذخيرة ، أما الشيء الذي كان بمثابة رياضة الاسترخاء لي فلقد كانت المشاركة على رأس أي من الخلايا القسامية المقاتلة لمهاجمة موقع صهيوني أو لمهاجمة رتل من عرباته المصفحة بالعبوات الناسفة ، فلقد كنت أشعر عند مشاركتي بمثل هذه الكمائن براحة نفسية عظيمة جداً ، كانت هي الدافع لأعاود نشاطي للقيام بالأعمال الأخرى .

في تلك الفترة كنت قد قررت أن نكثف توجيه الضربات " العقابية " للعدو بمنطقة سلفيت وبمنطقة حوارة جنوب نابلس ، حيث كان المستوطنون لا يخرجون من تلك المستوطنة أبداً أبداً ؛ إلا بصحبة حراسات مشددة وباستعمال حافلات مصفحة ، فلم يعودوا يستعملون سياراتهم الخاصة خوفاً من الكمائن والعبوات الناسفة .

بعد عدة أشهر قدر الله أن يصاب أيمن حلاوة بحرق في وجهه ورقبته جراء اشتعال مادة تستعمل في الصناعات العسكرية ، مما جعل أيمن وبسبب إصابته يلقي على عاتقي عبء تشغيل عدد من مقاتلي القسام هناك في نابلس ، ولأني ما زلت غير مطارَد فلقد كنت أقضي نصف أسبوع بمدينة رام الله مع بلال والخلايا التي شكّلها ؛ والنصف الآخر بمدينة نابلس بمتابعة بعض رجال أيمن حلاوة .

وهنا حدث ما لا تحمد عقباه أبداً ؛ فلقد زاد طغيان العدو الصهيوني وبغيه وغدره ، ولأنه لم يستطع الوصول لقادات القسام ولا لعناصر القسام المقاتلة ، فلقد قام هذا العدو الباغي بقصف مقر مخصص للصحافة والأخبار في مدينة نابلس مما أدى لاستشهاد عدد من الشهداء كان على رأسهم الشهيد جمال سليم وجمال منصور ، وهما أهم قياديين سياسيين بحركة حماس بنابلس بل بمنطقة الضفة الغربية في ذلك الوقت ، وفي ذلك الوقت أيضاً حدثت إحدى أهم الانعطافات بمسيرتي الجهادية ؛ فلقد تعالت أصوات الحناجر المشيعة لجثامين الشهداء بالثأر والانتقام من العدو ؛ وكانت تلك الحناجر تطالب كتائب عز الدين القسام بالعمليات الاستشهادية ، العمليات الاستشهادية التي أنا شخصياً – عبد الله البرغوثي– لم أكن أفضلها ، فلقد كنت أفضل المواجهة المسلحة والكمائن والعبوات الناسفة والألغام ، أما العمليات الاستشهادية فلقد كنت أرفض مجرد التفكير بها .

أما أيمن الذي كان يعاني من جرحه فلقد كان يفضل هذا النوع من العمليات ، فطلب مني وألحّ عليّ بل رجاني وحلّفني بالله العلي العظيم أن أعمل على التخطيط لإحدى تلك العمليات .

وهنا وبعد تفكير لم يطل كثيراً قررت أن ألبي النداء ، وطلبت من أيمن حلاوة أن يرسل لي أحد الأشخاص الذين يريدون تفجير أنفسهم فسألني : "هل هناك نوع معين من الأشخاص؟ هل تريده مثلاً أن يجيد اللغة العبرية ليسهل تنقله ووصوله إلى المكان المستهدف؟ " ، قلت له : **" أرسل لي شخصاً يرى ما لا أراه ، أرسله بعد أسبوعين إلى أحد مساجد رام الله ؛ وأنا من هناك سوف أتولى باقي الأمور "** .

ودّعت أيمن حلاوة واتجهت إلى رام الله ، اجتمعت ببلال البرغوثي وقلت له أننا نريد تغيير مهمة إحدى الخلايا القسامية التي تعمل معنا ، فبدل أن تقوم تلك الخلية بنقل العبوات الناسفة من مكان إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى ؛ أريد من تلك الخلية نقل استشهادي ، وعندها قال بلال : " الحمد لله أنك قررت خوض هذا المجال " ، فقلت له : **" بالله عليك لا تناقشني في هذا الموضوع حتى لا أبدل رأيي "** ، قال : " حسناً حسناً ، المهم أنك قد قررت خوض هذا المجال ، هكذا تكون مهندساً قسامياً مئة بالمئة ، فبعد الكمائن والاشتباكات المسلحة يأتي دور العمليات الاستشهادية ".

بعد طول تفكير وقع الاختيار على خلية "محمد دغلس" لكي تنفذ هذه العملية ، والسبب الرئيس هو أن "محمد دغلس" كان يملك عنصراً مهماً جداً جداً ، وهو الأخت المجاهدة "أحلام التميمي" التي لم أكن أعلم عنها شيئاً ، وهنا أقصد أني لم أكن أعلم اسمها أو إن كانت شاباً أم شابة ، لكني كنت أعلم أنه تم اختيارها حسب أعلى المواصفات من حيث التكتم التام والحس الأمني العالي والإيمان الصادق بدرب كتائب عز الدين القسام .

بعد عدة أيام وبعد أن رصَدَت أحلام أحد الأماكن في مدينة القدس أردتُ أن أختبر الإجراءات الأمنية المتبعة ، لذلك أرسلت عبوة ناسفة صغيرة الحجم لأحلام التميمي من خلال محمد دغلس ثم معاذ ثم بلال البرغوثي ، بلال البرغوثي الذي جُن جنونه عندما قلت له اذهب من قرية بيت ريما إلى مدينة رام الله لشراء ست علب بيرة ودجاجة مشوية وبعض المكسرات وأحضرها لي في القرية ، قلت له ذلك بعد صلاة الفجر بمسجد القرية فجن جنونه لكن بصمت ودون أن ينطق بكلمة واحدة ، لكن عيونه كانت تقول ما لم يقله لسانه !

انطلق بلال من القرية إلى رام الله مباشرة بعد الصلاة ولأن الحواجز الصهيونية كانت كثيرة جداً وكانت تغلق كل الطرق الرئيسية فلقد استغرق قطع المسافة التي كانت بالعادة لا تزيد عن نصف ساعة ، نصف يوم ! فاشترى العلب الست من البيرة والدجاجة والمكسرات وعاد إلى القرية في نفس اليوم ، أي أنه أمضى يوماً كاملاً ذهاباً وإياباً ، أعطاني ما أحضره لي فشكرته بعد أن أعطيته الدجاجة المشوية ، واحتفظت بالمكسرات وعلب البيرة ، أمضيتُ عدة ساعات وأنا آكل المكسرات وأجهز العبوة الناسفة التي صنعتها وأخفيتها في قلب إحدى علب البيرة .

وضعت تلك العلبة المفخخة بين العلب الخمسة السليمة بداخل الصندوق المخصص لها ، وعند صلاة الفجر قابلت بلالاً وأعطيته كيساً ما إن حمله حتى قال : " هذه علب البيرة ، هذه علب البيرة ، لماذا أحضرتها لي ؟! " ، فقلت له أنها من النوع الرديء وأني أريد من يعيدها إلى رام الله ، صمت بلال بغضب وقبل أن ينفجر غضبه ، وهو الهادئ الملتزم ، قلت له أن إحدى تلك العلب مفخخة ؛ وأن المطلوب إيصال تلك العلب لمحمد دغلس ومنه إلى أحلام التميمي

لكي نزرعها في الموقع الذي قامت هي باستطلاعه ، فحمل العلب مبتسماً مهللاً لأنه أدرك أن موعد تنفيذ العملية الاستشهادية قد اقترب .

كانت عملية "علبة البيرة" أشبه ما يكون باختبار لأعصاب من سوف يقومون بتنفيذ العملية الاستشهادية ، فلقد أردت أن أرى مدى الانضباط والقدرة على العمل تحت ظروف مختلفة عن تلك الظروف السابقة ، فعمليات إطلاق النار ونصب الكمائن المسلحة وزراعة العبوات الناسفة على جوانب الطرق تحتاج إلى نوع آخر من المقاتلين ، أما العمليات الاستشهادية فتحتاج إلى نوع ذي أعصاب حديدية وقدرة على التحكم بالمشاعر بشكل كامل ومطلق ، وسوف أتحدث عن هذه النقطة بومضة أخرى شاهدتُ خلالها أشد مقاتلي القسام وأقواهم عزماً يبكون ولا يكفون عن البكاء أثناء الإعداد والتجهيز لإحدى العمليات الاستشهادية !

حمل بلال البرغوثي صندوق علب البيرة الموضوع داخل كيس بلاستيكي وانطلق إلى مدينة رام الله وسلّمه لمحمد دغلس الذي سلمه بدوره للأخت المجاهدة أحلام التميمي ، أحلام التي قامت باستطلاع المكان أولاً قبل أيام معدودة ثم بزراعة العبوة بعد أن مرت بها عبر حواجز الاحتلال من رام الله إلى مدينة القدس ؛ مدينة القدس التي سوف تصبح فيما بعد مركز عملياتي الرئيسي ، هناك في إحدى الأسواق التجارية زرعت أحلام العبوة الناسفة وبعد أن شغّلتها انفجرت العبوة في الوقت المحدد ، لم يكن المقصود إيقاع قتلى أو حتى جرحى في تلك العملية أبداً كما قلت .

نجحت العبوة بزرع الخوف في قلوب الصهاينة بأماكن السوق ، لكن الأهم هو نجاح كامل لعناصر الخلية بأن يحملوا علبة بيرة ، "بيرة" وهي شيء تهابه يد المسلم المؤمن ، لكن انضباطهم وشفافيتهم جعلتني أبدأ بالخطوة الثانية من تلك العلمية .

وهنا توجت إلى رام الله لإحدى الشقق التي كنت أمتلكها هناك للجلوس بعيداً عن صخب الانتفاضة وبعيداً عن إزعاج ولدي "أسامة" الذي ولد بتاريخ ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٠م ، وُلد وأنا منشغل تماماً عنه ، حتى أني لا أذكر أني حملته بين ذراعي منذ أن وُلد وبعدة أشهر ، بل حتى أني لا أذكر تحديداً سبب تسميتي له بـ "أسامة" ، ولكني أعتقد أني أسميته أسامة لأن لي أربعة أصدقاء أسماؤهم أسامة ، وأعتقد أن ذلك هو السبب الأرجح ، أما عدم حملي إياه وحتى عدم حضوري يوم عملية "تطهيره" فلأني كنت دائماً بسفر من مدينة إلى أخرى ومن قرية لأخرى، فلم يكن لي دقيقة لبيتي ولزوجتي ولتالا وأسامة !

في تلك الشقة أمضيتُ يومين وليلتين ، وطلبت من بلال أن يذهب لقضاء يومه في المدينة وليلته بشقة أخرى كنت قد استأجرتها على اسم شخص آخر .

في صباح اليوم التالي حضر بلال مبكراً دون أن يعلم أن اليوم هو موعد وصول الاستشهادي "عز الدين المصري" من نابلس إلى رام الله لأحد المساجد ليصلي هناك وينتظر شخصاً سوف يأتي ليصطحبه لتنفيذ العملية ، طلبت من بلال أن يذهب إلى المسجد مع محمد دغلس للقاء عز الدين ولكي يقوموا بشراء ملابس تتناسب مع الموقع الذي تم رصده ؛ وهو أحد المواقع التي استطلعتها أحلام التميمي في القدس الشريف .

بعد أن أعطيتُ بلال كلمة السر وكلمة التعارف انطلق فأحضر عز الدين المصري وجهّز له الملابس الخاصة ووضعه وتركه أمانة عند محمد دغلس في إحدى الشقق التي استؤجرت لتكون بيتاً آمناً ، أي بيتاً لا يوجد في داخله أي شيء أبداً سوى الأثاث والطعام ، أي بيتاً عادياً جداً ؛ دون سلاح ودون مختبر للمواد الناسفة .

وعاد بلال إلى شقتي فأخبرني بما فعله فقلت له : " حسناً " ، وطلبت منه أن يذهب إلى أحد المحال التجارية المخصصة للآلات الموسيقية ، ليشتري لي قيثارة ، حددت له مكان المحل ومكان القيثارة ولونها وطلبت منه أن يشتري لها بيتاً من الجلد ، سألني : " لماذا قيثارة ؟ ماذا تريد أن تفعل بها ؟" ، قلت : **" أريد أن أعزف عليها فأنا أشعر بالملل "** ، بلال رغم أنه عنصر قسّامي منضبط إلا أنه كان يُجنّ من أجوبتي عليه ، فهي أجوبة غير مفهومة أبداً بالنسبة له ، " تريد قيثارة لتعزف عليها وهناك استشهادي ينتظرنا في البيت الآخر على أحر من الجمر؟! " ،

ذلك ما أراد بلال قوله لكن حسن خلقه وانضباطه جعلاه يقول : "حسناً ، سوف أحضرها على الفور " ، وفعلاً خلال نصف ساعة عاد بلال ومعه القيثارة ، فأمضيتُ فترة العصر والمغرب وحتى حلول ساعات الليل المتأخرة أعزف على القيثارة ، وكان بلال يشاهدني بصمت وبصبر ولم يسأل أي سؤال ولم يزعجني رغم إزعاجي له بألحاني المزعجة ! تعب بلال وغلبه النعاس فقلت له : **" اذهب لتنام عند محمد دغلس وعند عز الدين المصري ، وعُد يوم غد باكراً "** ، أمضى بلال ليلته مع أخويه بقراءة القرآن والصلاة ، أما أنا فلقد توقفت عن العزف وذهبت للنوم، فـ " النوم سلطان " كما يقال .

استيقظت على صوت الباب الذي كان يطرقه بلال ، ففتحت له وأجلسته في غرفة الضيوف حيث كنت أعزف ليلة البارحة ، استلقيتُ على أحد المقاعد متعباً نعساً وطلبت من بلال أن يحضر القيثارة من الغرفة المجاورة ، وقبل أن أنهي جملتي شعرت أن بلال سوف يقوم بكسر القيثارة ألف قطعة ، فلقد قال لي أنه لم ينم وأمضى الليلة بطولها مع أخويه بالعبادة ، لنتقرب إلى الله لعله يسهل هذه العملية ، ولذلك وقبل أن يصل بلال باب الغرفة التي كنا نجلس فيها قلت له : **" احذر أن تمس القيثارة بسوء وارفعها بحذر شديد جداً جداً ، فالقيثارة مفخخة بمواد ناسفة تكفي لتنسف المبنى كاملاً ، احذر بالله عليك وسَمّ باسم الله قبل أن ترفعها "** ، عاد بلال ووضع القيثارة على الطاولة ، وقال: " لمن القيثارة؟ هل هناك عملية أخرى غير عملية الاستشهادي ؟! " ، فقلت له : **" لا أبداً ، لا عملية اليوم سوى عملية عز الدين المصري"** ، فرد: " أين الحزام الناسف؟ " فقلت : **" الأحزمة الناسفة كان لها زمنها ، أما الآن فزمن " الألحان الناسفة "** .

طلبت منه بعد ذلك أن يطلب من محمد دغلس أن يستدعي أحلام التميمي للحضور لمدينة رام الله ، أحلام في تلك الفترة لم تكن تعلم أي شيء مطلقاً ، وفعلاً ذهب بلال لإبلاغ محمد بما طلبته منه وعاد ليجدني نائماً ؛ غارقاً في النوم ، فأنا في الليلة السابقة لم أنم سوى عشر أو خمس عشرة دقيقة فقط ثم قمت لكي أستحم وأبدأ بإعداد القيثارة وتفخيخها ، ولقد استغرق ذلك الليل بطوله ؛ وما أن انتهيت ووضعت رأسي على الوسادة لأنام حتى استيقظت على صوت طرق الباب بالصباح الباكر ، وها أنا أستيقظ على طرقه مرة أخرى ، ليخبرني أن أحلام قد وصلت لرام الله وأن ساعة المساء قد حانت ، تلك الساعة التي أردتها أن تكون في منتصف النهار ؛ أي عند الظهيرة بنفس التوقيت الذي قصفت به طائراتُ الاحتلال المكتبَ الصحفي الذي كان بداخله الشهيدان "جمال منصور" و"جمال سليم" ، أردت أن يشهد العالم كله "العقاب" الذي سوف يتلقاه أولئك الصهاينة المحتلون جزاء جرائمهم بحق أبناء فلسطين.

أعطيتُ بلال القيثارة وتوجه بها إلى مكان وجود محمد دغلس والاستشهادي عز الدين المصري ، هناك بداخل تلك الشقة قام بلال ومحمد وعز الدين بقضاء عدة ساعات حرجة من الانتظار والترقب ، الانتظار للضوء الأخضر لانطلاق تنفيذ العملية ، فلقد كلفت مجموعة مكلفة بعدة مهام ، منها :

أولاً : مراقبة المسجد الذي كان من المفترض أن يصل إليه الاستشهادي ، ولقد بدأت تلك المهمة من المراقبة منذ ساعات الفجر الأولى واستمرت حتى ساعات ما بعد صلاة العصر من ذلك اليوم ، وكان تقرير المراقبة يفيد أن الأمور طبيعية مئة بالمئة وأن الاستشهادي وصل

بالموعد المحدد ؛ أي قبل صلاة العصر ، وصلى ثم انتظر بالركن المحدد له بمسجد جمال عبد الناصر بمدينة رام الله ، وبعد ذلك دخل أحد الإخوة ليصطحبه من هناك ، وطوال تلك المدة كانت الأمور هادئة ولم يكن أحداً يتابع أو يراقب أياً من الاستشهادي أو الأخ الذي اصطحبه معه ، ولقد بقينا داخل المسجد وحوله قبل وبعد الوصول والمغادرة ولم نلاحظ أي شيء .

ثانياً : لقد كانت المهمة الثانية تحتوي على جزأين ؛ أولهما متابعة عز الدين وبلال منذ خروجهم من المسجد ومرورهم بالبيوت لشراء الملابس ، ثم مراقبة المنزل الآمن الذي مكث به كل من بلال ومحمد والاستشهادي عز الدين المصري ، ولقد جيءَ بتقرير المراقبة الذي وصلني صباحاً وأفاد أن الأمور قد سارت على أكمل وجه ، ولم يكن هناك سوى نقطة واحدة استثنائية جاءت في ذلك التقرير وهي أن أضواء شقة البيت الآمن كانت مضاءة طوال الليل ، ولقد أرجعت ذلك لأن الثلاثة كانوا قد أمضوا تلك الليلة مستيقظين لأداء الصلاة وقراءة القرآن الكريم ، لكنني قررت أنه فيما بعد يجب أن لا يتمكن أي أحد خارج أي بيت آمن من مشاهدة أضواء الإشارة نهائياً ، ولذلك عملت على تزويد كل الشقق بستائر من النوع الثقيل الذي لا يسرب الضوء .

ثالثاً : وهي المهمة الأصعب فلقد كانت تركز على رصد ومتابعة حركة السير من مدينة رام الله وصولاً إلى مدينة القدس المحتلة ، ومتابعة الحواجز العسكرية الموجودة على امتداد ذلك الطريق سواء كانت حواجز ثابتة أو حواجز استثنائية وفجائية ، ولقد جاء في ذلك التقرير الذي كان محصلة عدة أيام من المراقبة بأن نؤجل العملية حتى تهدأ الأوضاع ، لكنني وجدت عكس

ذلك تماماً ، لأنه رغم أن حالة الاستقرار والتفتيش كانت دقيقة إلا أنه كان ثابتاً ولم يتغير على مدى تلك الأيام ، أي أنه أصبح روتينياً والهدف منه التضييق والتخويف ليس إلا ، وهنا بعد أن صليت ركعتي استخارة قررت أنه قد حان موعد الانطلاق .

وأرسلت إشارة لبلال البرغوثي لكي يرسل الاستشهادي عز الدين المصري مع محمد دغلس ليوصله للأخت أحلام التميمي ، وبعد ذلك وفي وضح النهار وخلال أقل من ساعة ونصف على إشارات البدء ، كانت أحلام التميمي قد سلمت الاستشهادي وأوصلته للقدس بعد أن مرت عبر الحواجز دون أن تفتَّش ودون أن تعطَّل ، فلقد كانت تحمل تقريراً صحفياً يسهل لها التنقل بين المدن ؛ ولأنها فتاة فلم تلفت الانتباه .

وهنا أقول أن تعمدي لاختيار أخت تعمل في المجال الصحفي كان مرده أن تكون رسالة القسّام واضحة وضوح الشمس ، أي أنتم أيها الصهاينة قمتم بقصف مكتب إعلامي وصحفي لا يوجد فيه أي مسلح ولا أي نشاط عسكري ، وأنا أرد عليكم بأن تكون الصحافة هي من توصل الاستشهادي إلى موقع العملية ، وأن تكون الصحافة هي من تصور وتبث وقائع تلك العملية.

وهكذا كانت أحلام التميمي ، تلك المجاهدة البطلة القسامية ثابتة الأعصاب وشديدة العزم والإيمان ، هي الصحفية الفلسطينية القسامية الأولى التي توصل استشهادياً ، وتعلن نبأ العملية عبر شاشة التلفاز الذي كانت تعمل به ؛ لأنه كان يجب أن يدرك العدو الصهيوني أنه إذا ما تجاوز خطاً أحمر ، فسوف نتجاوز نحن أيضاً ذلك الخط ، وهكذا كانت مع تقدم أيام الانتفاضة الأم كانت الخطوط تقصف الواحدة تلو الأخر .

وصل الشهيد عز الدين المصري إلى أحد مطاعم القدس القريبة إلى مطعم رُصد بعناية فائقة وهو مطعم للبيتزا اسمه مطعم "اسبارو" ، واجتاز الشارع ليصل إلى المطعم حاملاً القيثارة ، أما سبب اختيار القيثارة فيعود لأمر واحد لا غير ؛ وهو أن حمل الآلات الموسيقية والدخول بها لذلك المطعم بالتحديد كان أمراً روتينياً جداً جداً ، فعندما قُدّم تقرير المراقبة قبل العملية جاء بذلك التقرير وصف للمكان وللأماكن التي كانت حوله ، ولأني أثناء إقامتي بالقدس أعرف المكان جيداً ، فلقد قررت أن تكون القيثارة هي الوسيلة لا الحزام الناسف ، لأنه كان هناك معهد لتعليم الموسيقى مقابل مطعم "اسبارو" ، ومحل لبيع الأدوات الموسيقية ، وكان عدد من مرتادي المعهد يتجولون بآلاتهم الموسيقية في ذلك الشارع عند تنقلهم ، وكان بعضهم يدخل إلى ذلك المطعم لتناول البيتزا حاملاً الآلة الموسيقية دون أن يتعرض للتفتيش من قبل الحارس الموجود على بوابة المطعم ، وهكذا وصل عز الدين دون أي عائق من أي نوعٍ كان ، فلقد كان منظره طبيعياً جداً من ناحية الملابس التي اخترتها له أو من ناحية الآلة الموسيقية التي كان يحملها .

فجّر الاستشهادي عز الدين المصري نفسه ليرقى إلى السماء ، مسدداً بذلك ضربة من ضربات "العقاب" للصهاينة المحتلين ، وهنا يجب أن أقول أن أهم ما حدث في تلك العملية ، أهم من كل تلك الإجراءات والاستعدادات التي قمت بها وقام بها كل من شارك في تلك العلمية هو ذلك الذي رآه الاستشهادي عز الدين المصري ولم نره نحن البشر ، نعم نحن البشر، أي أن عز الدين المصري لم يكن من البشر أبداً أبداً .

عندما طلبت من أيمن حلاوة أن يزودني بمقاتل قسامي يريد أن ينفذ عملية استشهادية قلت لأيمن جملة واحدة عندما سألني عن مواصفات الاستشهادي ؛ قلت له : **" أريد من الاستشهادي "أن يرى ما لا أراه"** ، هذا فعلاً ما حدث ، رغم أن عز الدين المصري لم يكن يعلم سوى أنه سوف ينفذ عملية استشهادية ؛ إلا أنه قال في تلك الليلة التي أمضاها مستعيناً بالله مع بلال ومحمد ، قال لهما : "سوف أقتل اليوم إن شاء الله ما بين خمسة عشر وستة عشر صهيونياً ، وسوف أصيب بإذن الله عز وجل ما بين مائة وخمس وعشرين ومائة وثلاثين بجراح ، كثير منهم سوف يبقون معاقين ، أي أحياء لكنهم أموات بسبب إصابتهم الحرجة " .

عز الدين المصري رأى ما لم نره ! وعاهد الله عز وجل على ذلك فصدق ، صدق ورب الكعبة واستطاع أن يقتل خمسة عشر صهيونياً وأن يجرح مئة وستة وعشرين ، أغلبهم أصيبوا بعاهات وإعاقات دائمة .

صدقت يا عز الدين المصري ، ورأيت ما لم نرهُ ، نجحت وتفوقت علينا نحن البشر رغم كل ما قدمناه إلا أنه لا يساوي نقطة واحدة ببحر ما قدمته أنت وأنجزته ، إلى جنات الخلد يرحمك الله .

وهنا أقول لك يا ابنتي الحبيبة أني أنا عبد الله البرغوثي الوحيد ؛ الوحيد الذي لم ير الشهيد عز الدين المصري ولا مرة واحدة ؛ ولا حتى بنظرة واحدة طوال مراحل تنفيذ العملية ! لم أكلمه ولم أوصِهِ ولم أودعه ولم أعانقه ! فلقد كنت منشغلاً بأن ترى عيوني وتسمع آذاني كل ما يدور حول العملية من إجراءات أمنية وتقنية لكي تنجح العملة وترى النور .

ومنذ تلك العملية حرصت على أن يمضي الاستشهاديون القادمون يومهم وليلتهم الأخيرة عندي بصحبتي لكي نصلي ونتعبد الله ؛ فبدون عون الله وتوفيقه لن نصل إلى أي هدف أو غاية ، فإما حياة كريمة حرة وإما شهادةٌ في سبيل الله .

عاد كل العناصر في خلايا كتائب عز الدين القسام سالمين وصعدت روح الشهيد عز الدين المصري إلى ربها ، لكني لم أعد سالماً ، نعم ؛ لم أعد سالماً بعد تلك العملية ، فرغم أني اهتممتُ بكل شيء إلا أني أبقى إنساناً بشراً ، ويبقى مَن معي مِن مقاومين بشراً أيضاً ؛ فقد وقع خطأٌ ما ، فوقعتُ أنا وبلال في الأسر للمرة الأولى .

لم يدم أسرُنا طويلاً ولكن خسارتي كانت كبيرة جداً جداً ، وفقدت الكثير الكثير جراء وقوعي في الأَسْر هذه المرة ، فلقد خرجت من تجربة الأَسْر حراً ؛ ولكن من نوع آخر ، نوع جعلني أصبح منذ ذلك اليوم **أميراً للظل** ، أميراً يعيش في الظل رغم أنف من أشعلوا مصابيحهم ليبحثوا عني ويجدوني .

❀ ❀ ❀

الاعتقـــال الأول

بعد أن عاد كل العناصر لممارسة حياتهم بشكل طبيعي بعد إيصال الشهيد عز الدين المصري للقدس ، وقبل أن ينفذ عز الدين العملية بنحو نصف ساعة تقريباً ، كنت أنا في طريقي لاستلام شحنة من الأسلحة والذخائر مخبأة بطقم للكراسي الضخمة والفخمة ، بقلب تلك الكراسي والأرائك تم وضع السلاح والذخيرة وإخفائها بشكل محترف من قبل أحد إخواننا الذي كان يعمل بمجال تنجيد الأثاث المنزلي بإحدى المدن الفلسطينية ، سلمته السلاح والذخيرة هناك وطلبت منه أن يخفيه داخل أحد الأطقم التي كنت قد اشتريتها من تلك المدينة ، فأخفى الأمانة بداخله وأرسله لي مع سائق نقل عام وأعطى السائق اسماً وهمياً كنت قد أبلغته لذلك الأخ المنجّد ، قبل وصول السائق للمكان المحدد ، وصل بلال بعد أن أوصل هو الآخر عز الدين المصري للإخوة لإيصاله إلى هدفه .

قابلت بلالاً وانتظرت أنا وهو وصول السائق مع الأمانة التي لم يكن يعلم بوجودها داخل طقم الكراسي والأرائك ، والأهم من ذلك هو أن بلالاً أيضاً لم يكن يعلم ماذا كنت أفعل هناك أصلاً ، فكل ما كنت قد طلبته من بلال هو أن يوصل عز الدين ويلاقيني في هذا المكان .

ما هي إلا دقائق بعد وصول بلال حتى انقض عدة أشخاص مسلحين وملثمين على بلال البرغوثي وعليَّ ليعتقلونا معاً، أولئك المسلحون كانوا عناصر جهاز الفساد والإفساد الفلسطيني؛ عناصر جهاز الأمن الوقائي ؛ كلاب جبريل الرجوب كلب بني صهيون ، اعتقل بلال واعتقلت

معه ولم أكن أنا الشخص المطلوب بل بلال ، لأنه قد تم رصد حركته من قبل جهاز الأمن الوقائي بسبب نشاطه وحركته الكبيرة خلال الأشهر الماضية ، فخلال ما يقارب العشرة أشهر كان بلال البرغوثي قد نفّذ وأدار وقاد عدداً كبيراً من العمليات عبر الخلايا التي قمنا بتشكيلها ، وما زاد الطين بلة هو ما كان في جيب بلال ؛ فبعد التحقيق معه لعدة ساعات بقي صامتاً لا يتكلم فاقتادوه للزنزانة في إحدى مقرات جهاز الأمن الوقائي بمدينة رام الله ، وهناك بالمقر الثاني فتشوه ووجدوا داخل أحد جيوبه ما يلي :

أولاً : عقد إيجار شقته التي برام الله وهو عقد باسم شخص آخر ، وعقد إيجار شقة أخرى كانت مستودعاً للسلاح والذخيرة والمال والمواد المتفجرة .

ثانياً : وهو الأهم ؛ بل ما قد قصم ظهر البعير وظهري أنا أيضاً ؛ هو أنهم وجدوا الورقة التي كانت تحمل وصية الاستشهادي "عز الدين القسام" الذي كان قد فجّر نفسه قبل عدة ساعات فقط ، أي بعد اعتقال بلال وبعد انتهاء التحقيق الأولي معه بمركز جهاز الوقائي الفرعي.

هنا جُن جنون جبريل الرجوب عندما علم أن بلال البرغوثي له صلة بعملية مطعم "اسبارو" الذي حدث ظهر اليوم في القدس ، ولقد ربط محققوه وجود عبد الله البرغوثي المهندس في القضية من هذا الباب ، وما زاد الطين بلة هو أنهم وجدوا مسدساً مع بلال أثناء اعتقاله عندما كنا ننتظر السائق الذي كان يحمل الأمانة .

وهنا داهمت قوات جهاز الفساد والإفساد الفلسطينية جهاز الأمن الوقائي بقيادة كلب بني

صهيون جبريل الرجوب الشقق التي كانت عناوينها مكتوبة على عقود الإيجار تلك ؛ العقود التي حملها بلال معه تحسباً من وجود ثغرة أمنية أثناء عملية مطعم "اسبارو" ولذلك فضّل أن يحمل كل الأوراق التي تمت له ولنا بصلة ويحتفظ بها.

ما إن وصلوا لتلك الشقق حتى وجدوا عدة مئات من الكيلو غرامات من المواد الناسفة وعدة مئات من اللترات من المواد الحارقة التي تستعمل لإنتاج المتفجرات ، ووجدوا عدداً كبيراً من السلاح وعدداً أكبر من الذخيرة وحواسيب ومناظير ليلية ، والكثير من التجهيزات الإلكترونية ، كل ذلك لم يكن يهم أبداً ، فكله يُشترى بالمال ، المال هوما وجدوه ! لقد وجدوا مالي الذي كنت قد سحبته من البنوك ! وجدوا مالي الذي قبضته ثمناً للمحلات التجارية التي بعتها ! كل المال وجدوه واستولوا عليه؛ بل نهبوه .

وما زاد الطين طيناً هو ذلك الفاسد الآخر توفيق الطيراوي الذي كان يرأس جهاز المخابرات الفلسطينية ، فلسطينية بالاسم ؛ صهيونية بالعمل والولاء .

داهم توفيق الطيراوي وقواته منزلي في قرية بيت ريما ، داهموا قلعة والدي ، وداهموا عدداً من المخازن التجارية التي كانت أمام الناس فارغة وغير مستعملة ، وهي في الحقيقة كانت مليئة بالمواد الناسفة ، وهكذ استولى جهاز المخابرات على ما تبقى من مواد ناسفة ومن مال ما زال في قرية بيت ريما ، وهكذا أصبحت معتقلاً أسيراً لدى أجهزة العمالة الفلسطينية ، اعتقل محمد دغلس لدى الصهاينة الذين اعتقلوه بناء على صلته ببلال البرغوثي بعد أن نُقلت تلك المعلومات من جهاز الأمن الوقائي لجهاز الشاباك الصهيوني ، ثم اعتقلت أحلام التميمي .

بقينا أنا وبلال معتقلان عدة أسابيع ، وخلالها أعلنا إضراباً عن الطعام ، فبدأت الأخبار تصل خارج أسوار المعتقل ؛ فخرجت مظاهرات طلابية ضخمة من جامعة بيرزيت ومن عدد من الجامعات الفلسطينية باتجاه المعتقل مطالبة بإطلاق سراحي ، سراح "مهندس كتائب القسام" ؛ ذلك الاسم الذي أطلق علي منذ تلك الأيام ومطالب بإطلاق سراح القائد القسامي بلال البرغوثي ، يدي اليمنى وكتفي الذي أستند عليه .

قدر الله أن تكون للمشوار تتمة ، فلقد كانت عملية مطعم "اسبارو" عملية مهمة جداً من ناحية التوقيت ، فلقد كان الشارع متعطشاً لها ، راغباً بمعاقبة الاحتلال والثأر منه ، مما دفع الشارع للغليان مطالباً بالإفراج عن منفذي العملية ، وقدر الله أن ترتكب إسرائيل جريمة أخرى بحق واحد من أشرف رجال فلسطن وأطهرها ، وهو الشهيد "أبو علي مصطفى" الأمين العام للجبهة الشعبية ، حيث قصفت قوات الاحتلال مسكنه القاطن بمدينة رام الله فصعدت روحه إلى بارئها ، وتصاعدت معها المظاهرات مطالبة بالإفراج عن سراح المعتقلين الفلسطينيين من داخل المعتقلات الفلسطينية وعلى رأسهم سراح قادة القسام .

وهكذا وفي نفس يوم استشهاد "أبو علي مصطفى" وبعد إحدى المسيرات والمظاهرات التي توجهت إلى معتقل جهاز الوقائي تم إطلاق سراحي وسراح بلال البرغوثي .

شُيّع جثمان الشهيد أبو علي مصطفى ذلك اليوم لكننا لم نشارك في ذلك التشييع ، ولم نحمل جثمانه ؛ فلقد كنا نحتاج لمن يحملنا ويساعدنا ، أما أحلام التميمي فقد كانت تخضع للتحقيق أيضاً في سجن "المسكوبية" بالقدس ؛ حيث كان محمد دغلس يخضع للتحقيق هو

أيضاً ، وهنا أقول أن ما جرى لي عند التحقيق كان أهون بكثير مما جرى لأختي أحلام وأخي محمد ، فأنا لم أعذَّب لدى جهاز الأمن الوقائي ؛ أما إخوتي فذاقوا المر والعلقم هناك عند الصهاينة ، لم نحمل الجثمان لكنا حملنا بعيداً .

المطـــارَد

نعم أصبحت مطارَداً بعد عام على العمل العسكري السري منذ بدء الانتفاضة ، أصبحت مطارَداً، وأيّ مطارَد ، وقد كنت منهَكاً من الإضراب عن الطعام الذي خضته وأنا معتقل لدى أجهزة الأمن الوقائي ، وبلال كان يعاني كثيراً بسبب الإضراب لأنه كان يملك كلية واحدة ؛ حيث فقد كليته الأولى في الانتفاضة الأولى ، وكاد يفقد الثانية نتيجة الإضراب ، لولا ستر الله ولطفه به .

كنا بدون شقق ، أو بدون مكان آمن نلجأ إليه ، بدون سلاح وعتاد ، وبلا مواد ناسفة وبلا بنية تحتية من حواسيب وأجهزة إلكترونية ، أما الأهم هو أني مطارد فقير ، فقير معدَم لا أملك قرشاً واحداً ، لأن المحن تأتي مجتمعة ولأن الابتلاء قد كُتب علي في تلك الفترة الزمنية الصعبة .

تلك الفترة التي كنت أشعر فيها بالعجز والضعف ، بعد أن كنت قد بدأت أجيد فنون المقاومة ، وهنا يا ابنتي الجميلة ويا ملاكي الحارس جاء الدور عليك لتمدي لي يد العون والمساعدة ، ولتعيني كتائب عز الدين القسام على النهوض مرة أخرى رغم أن عمرك لم يكن قد تجاوز العامين ، ورغم أنك وطوال العام الماضي الذي كنت أعمل فيه بشكل سري لم أرك سوى أياماً معدودة ؛ رغم كل ذلك كنت أنت أول من قدّم لي وللقسام يد العون .

عندما وُلدت قبل عامين كنتُ ثرياً فاحش الثراء ، ولذلك كنت كثيراً ما أجلب الهدايا لك

وبالأخص الهدايا الذهبية ، وهكذا أصبح لديك الكثير من تلك القطع الذهبية التي كنت أوصي صديقاً لي يملك محلاً للمجوهرات أن يصنعها لك خصيصاً لتناسب صغر يديك وخفة وزنك ، وعندما كنت أذهب لإحضار تلك القطع الذهبية من عند صديقي الصانع كنت أشتري من عنده أيضاً قطعاً ذهبية لوالدتك ؛ لزوجتي الحبيبة ، أما قطع الذهب الخاصة بوالدتك، فلقد كانت كبيرة وثقيلة جداً ، حتى أن والدتك كانت دائماً ما تقوم باستبدال تلك القطع بقطع أصغر لتتناسب مع ذوقها هي ، فلقد كان ذوقها أرقى بكثير من ذوقي .

وهكذا فلقد كان أول ما فعلته عند خروجي من معتقل الوقائي هو بيع كل ذهبك باستثناء خرزة زرقاء ؛ وكل ذهب والدتك باستثناء دبلة خفيفة أبقيتها كرمز للزواج ، أنت لم تعارضي أبداً ، أما أمك فهي من اقترح علي تلك الفكرة أصلاً ؛ بل إن والدتك قامت بسحب كل المال الذي كنت قد أودعته في حسابها قبل عام عندما قررت أن أسير في درب المقاومة ؛ والمال الذي سبق أن جمعته من هدايا ونقوط خلال زواجنا .

وثاني ما قمت به هو الوصول للصديق الذي أودعت عنده الأمانة ؛ تلك الأمانة ؛ طقم الكراسي المليء بالسلاح والذخيرة ، فهو صديق وفيّ أرسلت له أثناء اعتقالي عند الوقائي رسالة، فقام بانتحال الاسم الذي ذكرته له وحصل على الأمانة واحتفظ بها عنده .

وعندما ظننت أن الأمور قد بدأت تسير بسلام ، وخاصة عندما استأجرت شقة وأعدت شراء الحواسيب وأصبحت أملك عدة هويات مزورة ، قدر الله أن أفقد من حولي الرجال الواحد تلو الآخر ، فاعتقل بلال البرغوثي مع ثلاثة من المجاهدين عند جهاز الأمن الوقائي ،

وبعد ذلك بفترة قصيرة فقدت أهم عقول حماس الهندسية المهندس أيمن حلاوة ، حيث قصفت إسرائيل السيارة التي كان يقودها بمدينة نابلس ، نابلس جبل النار .

وبعد ذلك فقدت حماس بل فقدت فلسطين وكتائب القسام ، سيد القساميين الشهيد محمود أبو هَنُّود ، حيث استشهد الأسد الجسور الذي أذاق الصهاينة المر ومرّغ أنوفهم بالتراب منذ سنوات طويلة من الانتفاضة الأولى وصولاً إلى الانتفاضة الثانية ، وهكذا أصبحت مثل الطفل الصغير بلا إخوة وبلا آباء ؛ نعم بلا إخوة وبلا آباء ؛ فأيمن حلاوة كان أباً للقسّام ومحمود أبو هنُّود كان أباً وقائداً عظيماً للقسام .

أما الإخوة فهم كثر، فلقد اعتقل في تلك الفترة أيضاً "سليم حجو" وهو أهم حلقات الوصل بين نابلس ورام الله ، بين جناحي الضفة الغربية ، ولأن يحيى عياش قد خطَّ على القرآن الكريم **" كن مع الله ولا تبالي "** ، فلقد أعز الله فلسطين والقسام بقائد قسامي لم أكن قد سمعت عنه من قبل ، قائد كان معتقلاً منذ سنوات لدى أجهزة الأمن ؛ سلطة الفساد والإفساد ، معتقلاً منذ اغتيال يحيى عياش ، اعتقلته الأجهزة الأمنية طوال تلك الأعوام بسبب علاقته مع عياش ، قدر الله له أن يخرج من أسر السلطة ؛ وقدر الله لي أن ألتقي به .

لم يكن من حملة السلاح ولا من قاذفي العبوات الناسفة ، ولم يكن طويلاً عريضاً ، لكنه كان عقلاً مفكراً بارعاً في إيجاد كل ما تحتاجه المقاومة ، كان صوت العقل والحكمة ؛ شجاعاً صبوراً صامتاً ، وأعني بالصمت كل ما تحمله الكلمة من معنى ، فطوال عامين كاملين من العمل المشترك ومن المطاردة سوياً وطوال أيام وليالٍ طويلة ، ظلَّ صامتاً ، أقسم أن حديثنا معاً لم

يتجاوز خلال العامين ساعتين أو ثلاثة كحد أقصى ، كان يفهم علي دون أن أتحدث ! وكنت أعلم ما يريد دون أن يقول ! وكما يقال: **" اللبيب بالإشارة يفهم "** ، لكني أقول أن ما كان بيننا كان هبةً ربانيةً ؛ هبةً لكلينا حتى نتمكن من خوض المعركة بصمت وقوة .

وإلى الآن ما زال ملف التحقيق معه مفتوحاً أمام القضاء الصهيوني ، فسوف أكتفي بأن أسميه باسم "السلوادي" ، وهكذا بدأت أنا والسلوادي من جديد ، هو خارج من المعتقل وأنا كذلك ، هو رافق المهندس عياش ؛ وأنا المهندس أبحث عمّن يرافقني ويعينني على دربي ودرب رجال القسام .

وهنا بعد أن بدأت ألملم أفكاري وأعيد صفّ صفوفي التي بعثرتها أجهزة الأمن الوقائي والمخابرات ، وجدت نفسي أقول تلك الكلمات ، الكلمات المتشابكة :

ألست على دين صلاح الدين * وابن الخطاب عمر أمير المجاهدين**

ألست من الموحدين المسلمين * ألم ننطق الشهادة لرب العالمين**

ألم تر كيف نذبح في فلسطين * وكيف يحاصر أهل غزة المساكين**

سحقاً لك أيها الجبان * أنت ما عدت اليوم إنسان**

بل أصبحت عميلاً للطغيان * تباً لك يا ابن الغربان**

ما دمت تقبل بالظلم والهوان * لأهلك أهل القدس والأقصى وفلسطين**

أعميت أم أنت أعمى بلا عيون * وبلا سمع وبلا آذان**

أليس هذا فعل من خان * وتحالف مع العدو بإمعان**

أم أن دينك عليك هان * استيقظ من غفلتك ولا تحزن**

فعدوي وعدوك واحد لا اثنان * إنه حلم احتلال بني صهيون**

ألم يمنعوا الصلاة وإقامة الأذان * ومنعوا الشيخ من قراءة القرآن**

مطارداً أخاطبك يا حليف الطغيان * فأنا ابن كتائب القسام عز الدين**

فأنا بدين محمد أدين * أنا ابن رام الله وابن جنين**

أنا ابن القسام عز الدين * أنا ابن القسام عز الدين**

وأنت أصبح العدو هو ربك * وهو من له أنت تدين**

حسبي الله ونعم الوكيل على كل من باع وهادن وقبل الذل والهوان ، حسبي الله على تلك الأجهزة الأمنية التي أصبحت عبئاً في فلسطين على المقاومة والثائرين ، أصبحت إمارات وممالك لقادتها الذين يتكالبون على المقاومة إرضاء لأسيادهم الصهاينة .

وهنا وقبل أن أعاود ضرب العدو من جديد قررت أن أضرب تلك الأجهزة الأمنية لكن ليس دون إراقة قطرة دم واحدة ؛ بل من خلال اختراقها بشتى الوسائل والطرق ؛ بالمال والتكنولوجيا ، والأهم من خلال بعض العناصر ، عناصر تلك الأجهزة القائمين عليها وعلى قادتها ، قاوموها بعد أن عرفوا حقيقتها ، وعرفوا أنها أدوات بأيدي قادتهم لتحقيق أوامر المحتل، ولأنها بيت من ورق ، سرعان ما تمكنت من معرفة كل ما يدور داخل دوائر تلك الأجهزة الأمنية، وأقسم بالله العلي العظيم أني أصبحت أعرف أدق التفاصيل التي تدور أحاديثهم حولها،

وكنت أعلم المهام المكلفين بها قبل أن تعلم بها العناصر التنفيذية ، أي كنت أعلمها من المصدر ، حتى أني أصبحت أعلم متى سوف تقتحم قوات الاحتلال وأين سوف تقتحم ، كان ذلك يتم بالتتبع مع قادة تلك الأجهزة العميلة بقيادة جبريل الرجوب وتوفيق الطيراوي .

❀ ❀ ❀

" العقـــاب" ثلاثيّ هذه المــرة !!

كان واجباً على كتائب عز الدين القسام أن ترد رداً موجعاً بعد استشهاد كل من محمود أبو هنّود واستشهاد المهندس أيمن حلاوة ، بل وكان واجباً عليّ بشكل شخصي أن أرد على تلك الجرائم بسبب علاقتي بأولئك القادة العظماء ؛ لكني عندما استشهدا كنت ما زلت ألملم خيوط إدارة المعركة من جديد ، ومع ذلك وقبل أن أجمع كل الخيوط ، قررت تنفيذ أكبر وأعقد عملية تنفذها كتائب القسام في ذلك الوقت في القدس المحتلة بالتحديد ، العملية الثلاثية .

لقد قررت أن أنفذ ثلاث عمليات في يوم واحد في القدس ، لكي يعلم العدو أن العقاب قادم ؛ قادم رغم أنفه ؛ قادم بعون الله ، وهنا وقع الاختيار على اثنين من الاستشهاديين لينفذا تلك العملية ، وهما الشهيدان أسامة حلبة وأيمن بحر ، فهما صديقان منذ الطفولة ، وكانا قد طلبا من أحد الإخوة أن يبلغ مهندس القسام عبد الله البرغوثي عن رغبتهما بالشهادة في سبيل الله ، ولأني كنت لا أفضل ذلك النوع من العمليات في ذلك الوقت السابق ؛ فلم أُبدِ موافقتي على ما طلباه ، ولكن بسبب إلحاحهما الشديد والقوي ؛ الذي وصل بهما إلى حد أن يقسما أنه إن لم أوافق على إعدادهما وتجهيزهما لينفذا عملية استشهادية أن يحملا سكاكين ويطعنا جنود الاحتلال على إحدى الحواجز العسكرية ، وهنا تلاقى إصرارهما مع الحاجة الملحة لتلقين العدو درساً قاسياً بعد عمليات الاغتيال التي نفذها .

كان كلا الاستشهاديين من مدينة القدس ، وهذا ما جعلني أكلفهما باستطلاع عدد من الأماكن التي كان يمكن استهدافها ، والتي كنت قد زرتها أنا عندما كنتُ مقيماً بمدينة القدس قبل الانتفاضة وفي بدايتها ، قبل أن أصبح مطلوباً لقوات العدو ، وخلال جولتين من الاستطلاع وقع الاختيار على أحد الشوارع المليء بالملاهي الليلية ، وهنا أقول شارع ؛ أي أننا لم نستهدف ملهى ليلي بعينه وإنما الصهاينة المتجمهرين أمام تلك الملاهي الليلية وهم غالباً من شبان جنود الاحتلال الذين يمضون ليلهم بالسهر والسكر ؛ ونهارهم بارتكاب الجرائم ضد أبناء فلسطين المحتلة .

طلبت منهما شراء سيارة ليستعملاها في تنفيذ العملية ، على أن لا يتم شراؤها من رام الله أو من القدس ، تجنباً للفت الأنظار لهما ، وبعد ذلك حددنا موعداً لتنفيذ العملية ، فحضرا إلى إحدى الشقق التي كنت قد أعددتها لتكون مختبراً للعبوات الناسفة ، وهناك زودت أحدهما بحزام ناسف لأنه كان يستطيع بسهولة - بسبب فصل الشتاء - إخفاءه بواسطة جاكيت شتوي . أما الثاني فأعطيته جهاز حاسوب مفخخ ، ولقد أمضيا تلك الليلة الرمضانية بعد تناولهما طعام الإفطار بتصوير عدد من أشرطة الفيديو لهما ؛ أشرطة للإعلام وللعائلة من أجل توديع أهلهم .

أمضيا تلك الليلة وهما يصليان ويقرآن القرآن الكريم ، وعندما جاء موعد السحور ودعتهما لينطلقا إلى القدس ليمكثا فيها حتى حلول منتصف الليل ؛ وبعد ذلك يفجرا نفسيهما بالأماكن المحددة مسبقاً ، عندما قلت أن "العقاب" سيكون ثلاثياً ، فأنا أعني ذلك حرفياً ، فلقد كان ثلاثياً قوياً .

عندما تم رصد مكان تنفيذ العملية كان مكاناً يناسب ثلاث عمليات لا أكثر ولا أقل ، فلقد طلبت من الاستشهادي الأول أن يفجر نفسه وسط الجنود الصهاينة المتواجدين عند بوابة أحد الملاهي الليلية عبر جهاز الحاسوب الذي كان يحمله معه ؛ وكان ذلك شيئاً عادياً أن يحمل أي شخص جهاز حاسوب ، أما الاستشهادي الثاني فلقد طلبت منه أن يفجر نفسه من خلال الحزام الناسف الذي كان يرتديه على جسده الطاهر وسط مجموعة أخرى من الجنود الذين يرتادون نادياً ليلياً آخر يقع في شارع آخر .

وفعلاً وبمجرد سماع دوي انفجار جهاز الحاسوب من الاستشهادي أسامة حلبة قام الاستشهادي أيمن بحر وحسب التعليمات والوقت المعلوم مسبقاً بتفجير نفسه ، وهكذا أوقع كلا الاستشهاديين عدداً كبيراً من قتلى وجرحى العدو االصهيوني .

بعد ذلك امتلأت الشوارع بسيارات الإسعاف وبقوات الاحتلال وبالمحطات الفضائية التي كانت تنقل البث المباشر لما يحدث هناك ، ولقد كان من عادة قوات الاحتلال أن تقفل بداية الشارع الذي حدثت فيه العملية ونهايته ، وهذا ما حدث فعلاً ؛ وهذا ما شاهدته على التلفاز وأنا أتابع البث المباشر ، وعندما رأيتها تقف شامخةً وكأنها تريد أن تحلق في السماء قلت لها : "مع السلامة" !

"مع السلامة" بعد أن اتصلتُ من خلال الهاتف الجوال الذي كان بحوزتي وهاتف آخر كان بحوزتها ، فودّعتني وانفجرت ، فلقد قمت بتفخيخ سيارة أثناء الليل عندما كان الاستشهاديان يصليان ويقرآن القرآن الكريم ؛ وبعد أن فخختها وضعت عليها إشارة أعلى

السقف لكي أستطيع مشاهدتها عبر التلفاز .

قبل أن ينطلق الاستشهاديان وأثناء وضعنا للخطة قررنا أن يقوما بإيصال نفسيهما إلى موقع العملية وأن يقوما بركن السيارة على الطرف الآخر من الشارع ؛ الطرف الذي كان بعيداً عن موقع العمليتين ، والذي كان وحسب معرفتنا بالمنطقة سوف يكون هو الطرف الذي تقوم قوات الاحتلال بإغلاق الشارع من عنده ، وهذا ما حدث بحمد الله ولقد صورت هذه العملية بالصوت والصورة عبر البث المباشر ، فكانت بحمد من الله وتوفيقه صفعة وعقاباً قوياً يتلقاه العدو الصهيوني جراء جرائمه بحق أبناء شعب فلسطين المحتلة .

وهكذا تم الرد وتم توجيه "العقاب" المناسب رداً على استشهاد كل من المهندس أيمن حلاوة وقائد كتائب القسام محمود أبو هنود رحمة الله عليهما ، وكتب الله لهما وللشهيدين أسامة حلبة وأيمن بحر الخلود في جنات الخلد والنعيم .

هذه العملية أفقدت العدو توازنه بشكل كبير جداً ؛ مما جعله يكثف بحثه عني من خلال عملائه أولاً ؛ ومن خلال عملاء جهازي الوقائي والمخابرات ، وأصبحت صورتي تملأ جيوب أولئك العملاء الذين كانوا يجوبون الشوارع والمساجد ليلَ نهار بحثاً عني ، فلم أتمكن من أداء الصلاة في مسجد منذ تلك العملية وحتى يومنا هذا أبداً .

وأطرف ما في هذا الموضوع أن جهاز الرصد الخاص بكتائب الشهيد عز الدين القسام الذي عملتُ على تشكيل عدد من أفرعه بالمناطق التي كنت أقيم فيها قد أشار في إحدى التقارير أنه لاحظ وجود عميل لجهاز الأمن الوقائي وعميل لجهاز المخابرات وعميل آخر للعدو

الصهيوني، كلهم يقفون بجوار أحد المساجد في منطقة البيرة الصناعية التي كانت المعلومات تشير لهم أني أقيم بها في ذلك الوقت .

❀ ❀ ❀

طغى وتجبر

هناك بعيداً عن رام الله والقدس حاصرت دبابات " الميركافا " قريتي بيت ريما فوصلني الخبر ، فعرفت على الفور أن المقصود من ذلك الحصار هو الوصول إلي ، بل الوصول لقلعتي واعتقال زوجتي هناك ، فتوجهت مع إحدى المجموعات القسامية المقاتلة عبر الطرق الالتفافية الترابية لمحاولة دخول القرية وخوض المعركة هناك ، ولقد تزودنا بكل ما يلزم من عبوات ناسفة وقنابل يدوية وأسلحة نارية ومناظير ليلية وبعض بنادق القنص ، لكننا لم نتمكن من دخول القرية ، ولأننا كنا في موقع مكشوف قررنا التروي حتى يحل الظلام ؛ فالليل حامٍ وساتر بعد الله عز وجل .

وما إن حل الظلام حتى سبقتنا دبابات الميركافا والمجنزرة التي تعمل بدون الحاجة لوجود جندي عندها ، فهي تعمل عبر أوامر من داخل المجنزرة أو الدبابة ، فبدأت تلك الدبابات بإطلاق نيرانها على كل أرجاء القرية فلم تترك منزلاً يقع ضمن مرماها حتى قامت برشه بوابل من الرصاص والقذائف !

استمر القتال طوال الليل وحتى طلوع الفجر ، فامتلأت القرية بالشهداء والمصابين ، واعتقل المئات من أبناء القرية ؛ وفرغت المنازل من كل الرجال ؛ من كل من كان عمره أكبر من خمسة أو ستة عشر عاماً ، هناك اقتيد عدد من أعمامي وأبنائهم ؛ وأُخذ جزء منهم لكي يتعرفوا على جثتي من بين الشهداء الذين كانت جثثهم أشلاء ممزقة بفعل قذائف الدبابات ، فلم يستطع

أحد أعمامي التعرف على جثتي المفترضة .

في ذلك اليوم استشهد نحو ثمانية شهداء ، أما الجرحى فكانوا بالعشرات لا بل بالمئات ، لكنني لم أكن لا أنا ولا إخوتي مقاتلي القسام من بين الشهداء أو الجرحى ، فنحن كنا مسلحين ومجهَّزين مما اضطر قوات العدو لأن تحضر عدداً من طائرات الأباتشي لتمشط المنطقة التي كنا فيها ، ولكن قدر الله لنا أن نخوض اشتباكاً طويلاً دون أن نفقد قطرة دم واحدة ، وفرض حظر التجوال لعدة أيام على القرية ، بقينا خلالها نناوش العدو من التلال المجاورة ؛ مما جعل القوات المحتلة تغادر القرية وتلاحقنا في تلك التلال والجبال ، وبفضل الله عز وجل وبمساعدة العبوات الناسفة وبنادق القنص استطعنا أن نوقع عدداً من جنود العدو بين قتيل وجريح .

زوجتي لم تكن بالقلعة عند مهاجمتها وإمطارها بوابل من القنابل مما أدى إلى احتراق جزء منها ودمار جزء آخر ، أما زوجتي الحبيبة وملاكي الحارس وأسامة ابني الصغير ، فلقد حماهم الله من تلك القنابل ومن الاعتقال أيضاً .

وما إن انسحبت قوات العدو حتى بان حجم الدمار أكثر وأكثر ، فلقد سُحقت سيارتان كنت أملكهما كانتا تقفان أمام منزلي ؛ فتحولتا إلى كومة من الحديد ، وتم تفجير ثالثة كانت تقف داخل أحد المخازن التجارية التابعة لي ، أما السيارة الرابعة فلقد وجد نصفها فقط ؛ أما النصف الآخر فوجد مهروساً في أحد أطراف القرية ، ويبدو أنه كان قد علق أسفل أحد الدبابات أثناء تلك المجزرة ، مجزرة بحق البشر والشهداء وبحق المنازل والسيارات وبحق أشجار الزيتون ، فلم يبق شيء قد سلم من تلك الآلة ؛ آلة الظلم والطغيان ؛ آلة الدمار ، أما أنا فلم يتأخر ردي عبر

عدد من العمليات المكثفة نفذت على الطرق الالتفافية وضد نقاط التفتيش والحواجز الصهيونية .

بناء ما تم تدميره

عندما عدت إلى رام الله بعد أن شاهدت حجم الدمار الذي حل بقريتي ؛ قرية بيت ريما ، قررت أن أتخذ عدة إجراءات لعلي أساعد ولو قليلاً على التغلب على هذا الدمار ، فكلفت أحد الأقارب بإعادة بناء منزل والدي الذي تهدم جزء منه واحترق جزء آخر ، وأعطيته المال المناسب لذلك ، ثم قمت بمساعدة كافة الأشخاص الذين كانوا مديونين لي بمال من أهل القرية ، ذلك المال الذي كانوا مديونين به جراء شرائهم السلع الاستهلاكية من المحلات التجارية التي كنت أملكها حتى بداية الانتفاضة ، لأنه عندما صفّيتُ وبعت تلك المحلات بقيتُ أحتفظ بسجل الديون.

ولم أكتف بهذا ، فالدمار كان قد طال الكثير والكثير من البيوت والأسر ، فأرسلت جزءاً من المال لعلي أساهم في صمود أهالي القرية على المحتل ؛ ولعلي أتمكن من إعانتهم على إعادة البناء .

وما هي إلا أسابيع قليلة جداً حتى عادت القرية على أحسن حال وأفضل وضع ، وما فاجأني هو أن أهل القرية كانوا متكاتفين ومتعاونين جداً ، حتى أن جزءاً كبيراً من المال الذي كنت قد خصصته لإعادة إعمار منزل والدي "قلعة جدي" ظل على حاله لأن عدداً من العاملين في مجال البناء تبرعوا لي ؛ تبرعوا لعبد الله البرغوثي ، بعملهم وبمواد البناء اللازمة لإتمام تلك

الأعمال ، وعندما سُئلوا قالوا : "لنفدي أبا أسامة **"**عبد الله البرغوثي **"** مقاتل بني صهيون ، وسوف نبني ما دُمِّرَ من قِبَل بني صهيون ، فهذه معركتنا أيضاً " !

حمدت الله على تكاتف أهل القرية ، بل على تكاتف أهل فلسطين الذين كانوا يسارعون إلى الخير وإلى البناء وإلى تقديم كل ما يملكون في سبيل تحقيق ذلك رغم ضيق الحالة المادية لهم .

أبــو علـــي الســلــوادي

في تلك الفترة وبخاصة بعد اعتقال بلال البرغوثي وعدد ليس بالقليل من عناصر كتائب عز الدين القسام ، سواء على يد أجهزة السلطة الأمنية أو على يد أجهزة الأمن الصهيونية ، أصبحت العلاقة قوية ومتينة وأصبح هناك بعض المشاكل أيضاً ، كانت تلك المشاكل تعود لسبب واحد وهو أن أبا علي السلوادي كان يخشى أن يفقدني وكان يخاف علي من الاعتقال أو الاستشهاد ، وكان يردد دائماً جملة على مسمعي يقول فيها : " إن فقدناك يا أبا أسامة البرغوثي فإننا لن نتمكن مهما حاولنا من تعويضك وتعويض ما تملكه من خبرة ومهارات عسكرية وأمنية " كنت أرد عليه ضاحكاً : **"فلسطين ولّادة ؛ سوف تنجب من هم خير مني بألف مرة ؛ فلا تقلق"** ، لكن قلق أبي علي السلوادي كان في محله ؛ ففي تلك الفترة كانت قوات الاحتلال تناوش حول المدن الكبرى ولم تكن قد اقتحمت أياً منها ، وفي إحدى تلك المناوشات والمعارك على أطراف مدينة رام الله ؛ وتحديداً منطقة "أم الشرايط" ، كنت مع عدد من رجال القسام ، وهم "سيد الشيخ قاسم" و "أبو أحمد الخطيب" وعنصران آخران ؛ خضنا اشتباكاً فجّرنا خلاله العديد من العبوات الناسفة وأطلقنا العشرات من الرصاصات باتجاه قوات العدو التي كانت تحاول اقتحام منطقة "أم الشرايط" ، قدر الله لي في ذلك اليوم أن أصاب بإحدى الرصاصات ، لتستقر هذه الرصاصة في فخذي اليمنى مخلّفةً نزيفاً حاداً ، وقبل أن يتمكنوا من نقلي بعد إصابتي كنت قد دخلت في غيبوبة نتيجة نقص الدماء من جسدي بسبب النزيف الحاد ،

استيقظت بعد ذلك بيومين في إحدى الشقق الآمنة بعد أن كان الإخوة سيد الشيخ قاسم وأبو أحمد الخطيب قد نقلوني إليها بمساعدة أخوين قساميين آخرين .

في تلك الفترة وخلال تماثلي للعلاج أدركت أن كلام أبي علي السلوادي صحيح ومهم جداً وأدركت كم كنت مخطئاً وكم كان هو صائباً وحكيماً ، فأبو علي كان يتضايق مني من أمرين اثنين ؛ أولهما كثرةُ تنقلي بين المدن الفلسطينية وقراها ؛ فلقد كنت لا أفضل المكوث في أي من المدن سوى فترة محدودة ؛ أو بمعنى آخر كما كنت أقول لأبي علي السلوادي عندما يصبح عملي ووجودي في أي مكان روتينياً فأنا أنتقل إلى مكان آخر ؛ فأنا لا أحب الروتين فهو يقتلني ويدمر حماسي ؛ ورغبتي في التجديد هو ما يدفعني للنجاح ، أما الشيء الثاني الذي كان يضايق أبا علي السلوادي مني فلقد كان حبي لخوض الاشتباكات المسلحة وعشقي للكمائن التي كنا ننصبها لقوات الاحتلال .

ما إن بدأتُ أسترجع عافيتي حتى قررت أن أبدأ أوسعَ برنامج لتدريب كل من يمكن تدريبهم من عناصر القسام على تقنيات صناعة العبوات الناسفة واللوحات الإلكترونية اللازمة لذلك ، وهنا كان دور أبي علي السلوادي دوراً محورياً ورئيسياً للغاية ؛ فلقد كان ينتقل من مكان لآخر ويجوب المدن الفلسطينية منتقياً أفضل شباب كتائب القسام الذين يصلحون ويملكون القدرة على التعليم وعلى القيادة أيضاً ، فنحن خلال البرنامج التدريبي الذي استمر نحو عام كامل ؛ كنا ندرب ونعد عدداً من قادة القسام ليكونوا قادة المرحلة القادمة حتى لايكون هناك فراغ أونقص إذا ما استشهد قائد ما ؛ وخاصة أن القبضة الأمنية من أجهزة السلطة الفلسطينية

ومن قوات الشاباك الصهيوني كانت قوية وشديدة جداً .

أما برنامج التدريب فلقد كان مكثفاً ومضغوطاً لدرجة كبيرة ومتعبة ، فلقد كان الدور أن تعقد بمجملها في مدينة رام الله ومدينة البيرة في عدة منازل أُعدت وخصصت لتلك المهمة .

تقدم برنامج التدريب بشكل جيد بفضل أبي علي السلوادي ؛ فقد أدار هذا البرنامج بحكمة واقتدار ؛ وبفضل كل من سيد الشيخ قاسم وأبي أحمد الخطيب اللذين كانا مساعديّ الشخصيين ؛ وكانا يمضيان كل وقتهما إما بتجهيز الشقق وإعدادها وإما بإحضار المتدربين وإعادتهم للأماكن التي قدِموا منها ، وتلك المهمة كانت الأصعب .

فلقد كان إحضار متدرب واحد ليتلقى برنامج التدريب يتطلب إجراءات أمنية سريعة ومعقدة في ظل الملاحقة الأمنية التي كانت حركة المقاومة الإسلامية حماس وذراعها العسكري كتائب عز الدين القسام تتعرض له من قبل قوات الأمن الفلسطينية التي كانت تجوب المدن والشوارع والمباني السكنية بحثاً عنا ؛ ومن خلال قوات العدو الصهيوني التي كانت تبحث عنا عبر عملائها وعبر وسائلها التقنية من طائرات للاستطلاع ، تلك الطائرات التي لم تكن تفارق المدن الفلسطينية أبداً ، ومن خلال أجهزة رصد المكالمات الهاتفية ؛ مما جعل مهمة سيد الشيخ قاسم وأبي أحمد الخطيب من أصعب المهام ، ولكن بفضل الله أنهما طوال عملهما معي لم يرتكبا أي هفوة أو خطأ ، بل كانا يملكان نوعاً من البصيرة الربانية وحساً أمنياً فائقاً ، يجنّبنا الوقوع في مصائد العدو .

أما أبو أحمد الخطيب فلقد كان مثل السيف ؛ إذا ما ضرب ضربة فإنه لن تكون هناك

حاجة ليعيد الضربة مرة أخرى ؛ فضربة واحدة منه تكفي وتزيد !

عندما أعددت برنامج التدريب ؛ قسّمته لعدة مساقات : النظري والعملي والميداني ، أما النظري فلقد حولت كل ما كان في رأسي من معلومات تقنية إلى أوراق مطبوعة ، مطبوعة بلغة واضحة سهلة جداً ، بحيث أن المتدرب رغم عدم إلمامه بعلوم الهندسة الإلكترونية أو بعلوم صناعة العبوات الناسفة ؛ فإنه كان يتمكن من فهم تلك الأمور لخلوها من التعقيد والإطالة المملة ، فأنا من خلال تلك الأوراق المطبوعة المزودة برسوم هندسية وتوضيحية أردت أن تكون الصورة واضحة بسيطة ، ثم أني قمت بالعمل على أن يحصل المتدرب على نسخة من تلك الأوراق قبل وصوله للتدرب عندي بعدة أيام لئلّا يفاجأ بما سوف يتم إعداده وتدريبه عليه.

ثم من الناحية العملية ، فلقد كنت بعد انتهاء الشرح النظري أبدأ بالتدريب العملي مع المتدرب ، فأعلّمه كيف يقوم بإعداد الدوائر الإلكترونية وتجهيزها ؛ وكيف يقوم بإعداد المواد الناسفة وتجهيزها ضمن عبوات مختلفة الأشكال والأحجام ؛ عبوات تتناسب مع كل عملية يراد التحضير لها .

أما من الناحية الميدانية فلقد كنت أدرب عنصر القسام على التعرف على أنواع الأسلحة المختلفة وعلى الذخائر المستعملة ، ثم أدربه على كيفية فك وجمع تلك الأسلحة من مسدسات ورشاشات وقنابل يدوية ، وبعد أن يتقن هذه المرحلة التي كانت تتم داخل المنزل المخصص للتدريب ، كنت أبدأ مهارة عملية ؛ فإنه يؤخذ إلى أحد المناطق القروية النائية للتدرب .

حرصت على شيء مهم وأتمنى أن يحرص عليه كل من يعمل في ميدان المقاومة ، وهو أنه لم يتمكن أي أحد من رؤية وجهي أبداً ولا التعرف على صوتي ، فلقد كنت مقنَّعاً طوال مدة التدريب مهما طالت ، وكنت أتحدث باللغة العربية الفصحى وليس اللغة العامية ، وكنت أطلب من سيد الشيخ قاسم أن يُلبس كل متدرب قبل أن يُدخله على المقاتلين قناعاً لكي لا أتعرف أنا على هويته ، وكان سيد يطلب منهم التحدث باللغة الفصحى مثلي تماماً ، وكنت أعطي كل واحد منهم اسماً حركياً أتعامل معه به ، أما هم فلم يكونوا يقولوا لي سوى كلمة واحدة وهي "الشيخ" ، "الشيخ" كان لقبي عند تدريبي لكل تلك العناصر القسامية المقاتلة، بعد أن تمكنت من تدريب كافة تلك العناصر ؛ بدأت أنتقي عدداً منهم لتكليفهم بمهمات جهادية خاصة .

كان الانتقاء يتم حسب المهارة التي أبداها المتدرب أثناء تدرّبه الأول لدي ، فكنت أخضعه لتدريب مكثف متخصص ؛ بحيث يكون هذا التدريب يتناسب مع المهام التي سوف يكلَّف بها ، وسوف أتطرق لبعض أبرز من قمت بتدريبهم وإعدادهم ، وسوف أبدأ من القدس الحبيبة على قلبي .

لقد وقع اختياري على مجاهد اسمه "وائل العبّاسي" وعنصرين آخرين قادرين على استعمال السلاح وصناعة العبوات الناسفة وزراعتها ، ولقد قامت تلك الخلية بعدة عمليات لزراعة العبوات الناسفة في أنحاء مدينة القدس ، فلقد كنت أزود تلك الخلية بالعبوات الناسفة لتلك العمليات ، لأن الخلية لم تكن تملك مكاناً آمناً في مدينة القدس لصناعة تلك العبوات فكنت أصنعها في مدينة رام الله ؛ وكان وائل العباسي يأتي لأخذها من هناك .

ولقد كان الشيخ قاسم هو الضابط المسؤول عن عمل تلك الخلية ؛ فلقد كان ينسق أعمالها مع أخ مجاهد اسمه "صالح التلحمي" ، وبعد عدة عمليات ناجحة قررت مع الإخوة أبي علي السلوادي وأبي أحمد الخطيب أن نوسع نشاط تلك الخلية المقدسية ؛ خلية وائل العباسي ، ولقد جاء هذا القرار بعد عملية جبانة قذرة أقدمت عليها قوات البرابرة الصهاينة .

فلقد قامت تلك القوات بقصف سيارة زوجة القيادي بحركة حماس" حسن أبو كويك"، لم يكن الشيخ حسن أبو كويك في تلك السيارة أصلاً ؛ في سيارة زوجته التي كانت تُقِلُّ أطفالها بعد انتهاء اليوم الدراسي ، فاستشهدت واستشهد أبناؤه أيضاً واستشهد عدد من التلاميذ في المدرسة من الذين كانوا بالمكان ؛ ولذلك كان لا بد من توجيه "العقاب" للعدو الصهيوني عبر عملية موجعة وسريعة ، فكانت القدس هي الهدف ، ووائل العباسي هو من استطلع وأعد الترتيبات اللازمة لإيصال الاستشهادي إلى المكان المناسب ، وهو مطعم ومقهى "مومنت" .

أهمية هذا المقهى تكمن في أنه يقع على بعد أمتار قليلة من بيت رئيس حكومة العدو الصهيوني شارون ، والأهم هو رواد هذا المقهى "مومنت" ، فلقد كانت المعلومات تشير أنه دائماً وفي تلك الفترة من اليوم يمتلئ المقهى بموظفين في الحكومة الصهيونية ؛ الذين يقضون فيه أوقاتهم ليكونوا قريبين من رئيس حكومة الإرهاب الصهيوني شارون .

وهنا أحضر لي سيد الشيخ قاسم ؛ الاستشهادي "فؤاد الحوراني" ، فقمت بتجهيزه بحزام ناسف ثم بتصويره وكتابة وصيته ؛ وبعد ذلك إلباسه ملابس تناسب الموقع الذي سوف يتوجه إليه ، حدث ذلك خلال ساعتين لا أكثر ، عاد سيد القاسم بعدها ليجده جاهزاً مستعداً ،

فاصطحبه معه ليوصله إلى وائل العباسي الذي عمل مع مساعديه من الإخوة القساميين على إيصال الاستشهادي إلى موقع العملية .

قدر الله أن يصل الاستشهادي فؤاد الحوراني بسلام إلى القدس ، قادماً من مدينة رام الله رغم أن الوقت كان ليلاً ، ورغم وجود عدد كبير من الحواجز العسكرية الثابتة والمتحركة ، وقدر الله أن يقترب أكثر فيَصِلَ إلى بعد عدة أمتار من مقر شارون ؛ من بيته في القدس ، وما إن دخل الاستشهادي فؤاد الحوراني حتى فجّر نفسه مخلفاً عشرات القتلى والجرحى الصهاينة ومنهم عدد من موظفي حكومة العدو وتحديداً موظفي شارون العاملين في وزارة الخارجية .

بعد تلك العملية جُن جنون شارون وصب جام غضبه على الضفة الفلسطينية فقام بتشديد الحصار حول المدن دون أن يقتحمها ، وعلى قطاع غزة من خلال زيادة عمليات القصف ، ولأنه لم يتمكن من الوصول لمقاتلي كتائب عز الدين القسام ؛ فلقد استهدف القادة القساميين ، وهكذا قصف شارون قطاع غزة موجهاً قذائف طائراته نحو المهندس "إسماعيل أبو شنب" ، ذلك المهندس المدني والقائد السياسي ، فاستشهد ، وخرج بعد استشهاده أسد فلسطين "عبد العزيز الرنتيسي" ليتوعد بالحساب والعقاب .

ولأن الأمور كانت تسير بوتيرة سريعة جداً ؛ فلقد كلفتُ خلية وائل العباسي بأن تستطلع مكاناً آخر خارج مدينة القدس المحتلة ، لكي لا تثار الشبهات حول تلك الخلية ، فلقد طلبنا منهم أن يكون المكان بين وسط وشمال فلسطين المحتلة ، ولقد وجدوا مكاناً مناسباً ، والأهم هو أنهم وجدوا استشهادياً مناسباً جداً لتلك العملية ، ولأن أسد فلسطين قال عندما توعّد بالرد

والعقاب أن الرد سوف يكون مزلزلاً وأن بنيان الصهاينة سوف يُهدم على رؤوسهم ، فلقد كانت عملية مزدوجة مركبة ، بحيث قمت بإعداد حزام ناسف لاستشهادي ليضعه حول جسده ؛ وقمت بصناعة عبوة ناسفة شديدة الانفجار ووضعتها داخل حقيبة ، طلبت من الاستشهادي أن يزرعها في أحد أركان موقع العملية المستهدف ، هذا الاستشهادي قام بدور حاسم بتحديد موقع العملية مع وائل العباسي ، فلقد كان يعرف دروب الجبال والوديان ، ولأن المدن كانت محاصرة ولأن العدو حاصر مناطق العبور إلى أرضنا المحتلة عام ١٩٤٨م ، فلقد اضطررنا لسلوك الجبال للوصول إلى الأهداف التي أردنا تنفيذ العمليات فيها .

وهكذا فلقد صنعت حزاماً ناسفاً من نوع مختلف عن الأحزمة الناسفة التي كنت قد صنعتها فيما سبق ؛ فهذا الحزام كان يُربَط حول الخصر ويُثبَّت أيضاً حول الكتف عن طريق حزام جلدي ، ولأنه يجب أن يكون الحزام قوياً ثابتاً على جسد الاستشهادي خلال قطعه لمسافة طويلة سيراً على الأقدام قاطعاً جبالاً وودياناً ؛ فلقد كانت المواد المصنوعة منها المادة مناسبة حتى لا تتأثر بالضغط أو الحرارة أو الحركة الناتجة عن المشي ، ولقد زودته أيضاً بعبوة ناسفة ووضعتها في حقيبته ، ولأن ذلك الاستشهادي كان يملك جسداً قوياً وبنية جسدية كبيرة ؛ فلقد كان رغم صعوبة قطع الجبال قادراً على الوصول للطريق الآخر ، حيث لقيه هناك وائل العباسي ونقله بسيارته إلى نادٍ للقمار اسمه نادي "شفره" وهناك زرع الحقيبة الناسفة في إحدى أركان النادي الليلي وفجّر نفسه بواسطة الحزام الناسف في الركن الآخر من النادي الليلي ، ولأن النادي الليلي كان في إحدى الطوابق العليا لبناية تجارية ؛ فلقد انهارت أجزاء كبيرة من تلك البناية التجارية جراء قوة المواد المستعملة في تلك العملية ، هذا الاستشهادي لم أذكر اسمه لأنه كان

أحد ألغاز العمل المقاوم ؛ لغزاً قسامياً ، فلقد كان هذا الاستشهادي قد قدم من الأردن ؛ ولأنه كان على علاقة وطيدة بعدد من عناصر حركة المقاومة القسامية ، فلم نشأ أن يَعرِف أحد اسمَه إلا بعد مرور ما يزيد عن ثمانية أعوام على هذه العملية ، ولم نعلن عنه إلا بعد أن شاهدتُ وأنا أقبع داخل زنزانتي نداءً موجهاً من والدته في الأردن تطالب بمعرفة مصير ولدها .

وهنا أعلنت كتائب الشهيد عز الدين القسام عن اسم منفذ تلك العملية الاستشهادية ؛ العملية التي قُتل فيها عشرات الصهاينة وأصيب المئات ، ولقد كان الاستشهادي يعلم أنه لن يتم الإعلان عن اسمه لتلك الأسباب قبل أن يقرر تنفيذ العملية ، ولأنه يعلم أن فلسطين المقاومة تستحق كل تضحية ؛ فلقد أقدم على الشهادة مجتازاً الجبال والوديان حاملاً معه وزناً كبيراً من المواد الناسفة .

يشهد الله على الرغم من أنني لم أقابل هذا الاستشهادي ؛ إلا أن من قابلوه أبلغوني أنه أمير الاستشهاديين ؛ أمير طلب الشهادة بإلحاح وأصر عليها ولأجلها اجتاز الصعاب ووصل إلى هدفه مقداماً ثابتاً عازماً على أن يلقن العدو درساً في المقاومة .

عذراً أم الشهيد ، عذراً أبا الشهيد ، عذراً أهل الشهيد ؛ على تأخر كتائب عز الدين القسام عن الإعلان عن اسمه للأسباب التي ذكرت ، وعذراً لأني لم أكتب اسمه بين صفحات هذا الكتاب ، لأني أكتب من داخل زنزانتي ؛ ولم أتمكن من الحصول على اسمه بسبب سجني ولأني معتقل في زنزانة خاصة ، اسمها زنزانة العزل الخاص ، زنزانة تملؤها كاميرات المراقبة ويمنع فيها زيارات المحامين ، زنزانة أقرب ما تكون إلى القبر ، بل هي القبر بذاته.

تـالا تحـــت الحصـــار !!

نعم يا ابنتي الجميلة ويا ملاكي الحارس ، لقد كنتِ تحت الحصار ! فلقد أصبحت أنت وأمك وأخوك أسامة ؛ أسامة الغضنفر ، تحت الحصار والمراقبة الشديدة من قبل عملاء الاحتلال ومن قبل عملاء الأجهزة الأمنية الفلسطينية .

لقد كانوا يحاصرون كل حركة تقومين بها أنت وأمك وأخوك ، فلقد وصلتني معلومات من خلال وحدة الرصد الخاصة التي كانت مكلفة بمتابعة عمل جهاز الأمن الوقائي ، أن هذا الجهاز لم يكتف بعملائه الذين كانوا يراقبون البيت من الخارج ليل نهار ؛ بل أنه أرسل عميلاً خاصاً بعد أن قام بتدريبه بمنطقة أريحا تدريباً احترافياً على يد مدير استخبارات حضر من الولايات المتحدة الأمريكية ، كان قد أرسله "جورج تنت" ليدرب ذلك العميل ويزرعه داخل منزلي ؛ ذلك المنزل الذي كنت أنت وأمك تقيمان فيه مع أخيك الصغير أسامة .

الصعب بل المحزن بالنسبة لذلك العميل أنه كان من أقاربي ؛ من أبناء عائلة البرغوثي ! وكان صغير العمر ويمت بصلة قرابة مباشرة مع زوجتي ! ولقد كُلِّفَ هذا العميل بمتابعة ما يدور داخل المنزل لعله يتمكن من الوصول إلي ، ولقد كان من المفترض أن يقوم بزرع أجهزة تنصت داخل منزلي بالإضافة إلى كاميرات للمراقبة .

لكن الله خير الماكرين ، فيمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ، الله عز وجل الذي

سهّل وصول المعلومة إليَّ عبر جهاز الرصد ؛ مما جعلني أقوم بعملية من نوع آخر لم أقم بها من قبل وهو كسر الحصار وتهريبك مع أمك وأخيك بعيداً عن القرية ؛ قرية بيت ريما لِتَصِلي إلي ، إلى البيت الآمن .

فبمجرد وصول تلك المعلومة التي حددت موعد انتهاء الدورة التدريبية لذلك العمل وموعد وصوله من أريحا إلى قرية بيت ريما محمَّلاً ومزوَّداً بتلك الأجهزة السمعية والبصرية التي كان مكلّفاً بزراعتها في بيتي ؛ فلقد كانت هناك وحدة خاصة قسامية قامت باعتقاله قبل أن يقوم بأي نشاط ، وقامت فرق قسامية أخرى بنقل زوجتي وأطفالي من القرية إلى رام الله بشكل سري، وبعد ذلك قاموا بنقل العميل أيضاً إلى رام الله لأبدأ التحقيق معه بشكل شخصي ، أجمل ما في ذلك التحقيق ؛ هو أنه ما إن جلس على الكرسي حتى بدأ العميل بسرد قصته لوحده دون أن يوَجَّه له سؤال واحد ! وبعدما أنهى سرد ما عنده وجهتُ له بعض الأسئلة الخاصة حول مواضيع متنوعة .

مما قاله أنهم أثناء التدريب بمنطقة أريحا على يد ذلك المدرب الأمريكي الذي يتحدث اللغة العربية هو أن المدرب طلب منه أن يشتري لك يا ابنتي الصغيرة بعض الحلوى لكي يستدرجك بالكلام عني ، رغم أن عمرك لم يكن قد تجاوز العامين بعد ؛ إلا أنهم كانوا يريدون أن يعرفوا أي شيء مهما كان صغيراً ، فلقد علمت أيضاً من خلال جهاز الرصد القسامي أن مكالمة قد جرت بين عرفات و "جورج تنت" مدير المخابرات الأمريكية ؛ حيث حثَّه على إلقاء القبض علي ، كما حثّه أيضاً في تلك المكالمة على إلقاء القبض على الأمين العام للجبهة

الشعبية لتحرير فلسطين الرفيق أحمد سعدات ، فلقد كان الرفيق أحمد سعدات مطلوباً بشكل كبير جداً جداً ؛ لأن الصهاينة كانوا قد اتهموه بتنفيذ عملية نوعية جداً قُتل فيها وزير السياحة الصهيوني "رحبعام زئيفي" .

بعد انتقال زوجتي وأطفالي ليعيشوا في إحدى المنازل الآمنة في مدينة رام الله ، أصبح من السهل علي زيارتهم هناك ، وهكذا أصبحت زوجتي مطلوبة لقوات الاحتلال من جهة ؛ ومطلوبة من قبل قوات أمن السلطة من جهة أخرى ، فعُممت لها صورة ، مما جعل تنقلها صعباً جداً ، حيث إن قوات الاحتلال كانت تضع عدداً من المجندات على الحواجز لفحص النساء والتدقيق بصورهنّ .

ولهذا ، فقد ظلت زوجتي طوال فترة المطاردة تعيش في مدينة رام الله ، لم تكف أجهزة أمن السلطة عن البحث عنها أو عني ، مما جعل أقاربي عرضة للاعتقال لدى تلك الأجهزة وتعريض منازلهم للمداهمة الدائمة والتفتيش المستمر بتلك الحُجة .

الشهيد صلاح شحادة

في إحدى الليالي قامت طائرة من طراز (إف ١٦) بقصف إحدى البنايات السكنية بمدينة غزة في حي اسمه "حي الدرج" ، تم قصف تلك البناية بتقنية ضخمة حولتها إلى أنقاض ، فاستشهد الشيخ "صلاح شحادة" قائد كتائب الشهيد عز الدين القسام في فلسطين واستشهد معه زوجته وبعض أطفاله ، واستشهد أيضاً عدد من سكان تلك البناية السكنية ومن سكان المنازل المحيطة بها ؛ ولذلك وجب أن ترد الكتائب على تلك الجريمة النكراء ، ولكن كيف نرد ونحن نعيش داخل سجن حقيقي في مدينة رام الله ؟! سجنٍ فَرَضَ علينا القتالَ المستمر مع العدو والمواجهة الدائمة معه في قلب المدن الفلسطينية .

قبل فترة من استشهاد القائد "صلاح شحادة" قام مهندس فلسطيني قسامي بعملية نوعية قلبت موازين وقواعد المواجهة ، ذلك المهندس ابن مدينة طولكرم "عباس السيد" .

"عباس السيد" هو مهندس فلسطيني درس الهندسة في المملكة الأردنية ، وأنهى دراسته في نفس العام الذي بدأت أنا فيه الدراسة بكوريا الجنوبية ، أي بعد حرب الخليج الأولى ، ولقد كان أثناء دراسته ناشطاً في جماعة الإخوان المسلمين ، ولذلك كان ولكونه فلسطينياً يتعرض للمضايقات والمطاردة من قبل أجهزة الأمن الأردنية آنذاك .

عاد عباس السيد إلى فلسطين وأكمل نشاطه السياسي بانضمامه لحركة المقاومة

الإسلامية حماس بمدينة طولكرم ، وتدرّج حتى أصبح ممثلاً وناطقاً في تلك المدينة ، ومع اندلاع انتفاضة الأقصى ظل يمارس عمله السياسي كالمعتاد ، إلا أن هذا المهندس الهادئ قرر أن يتجه للعمل العسكري بعد أن ازدادت جرائم الاحتلال وفاقت الوصف ، ففي تلك الفترة لم يكن يكاد يمر أسبوع واحد بدون مجزرة أو جريمة ترتكب ضد أبناء الشعب الفلسطيني في مختلف بقاع فلسطين .

لذلك قام هذا الذكي الهادئ ؛ هذا المهندس عباس السيد بتشكيل خلية قسامية وقام بإعداد عبوة ناسفة هي الأضخم والأقوى في تاريخ كتائب القسام في الضفة الغربية والقدس ، وأرسل تلك العبوة مع استشهادي إلى أحد الفنادق ، فانفجرت العبوة واستشهد المقاوم ، ولقد خلفت تلك العبوة قرابة ستة وثلاثين قتيلاً صهيونياً وعدة مئات من الجرحى ، جزء كبير منهم أصيبوا بإعاقات دائمة .

وهنا اتخذ رئيس حكومة العدو تلك العملية ذريعة فقام باجتياح كافة المدن الفلسطينية ، وبعد ذلك الاجتياح قُصفت غزة واستشهد الشيخ صلاح شحادة رحمة الله عليه .

وهنا أصبح الرد على جريمة اغتيال قائد كتائب القسام واجباً ، ولكن الطرق كانت قد أصبحت أكثر صعوبة على تنفيذ هذا الرد ؛ بل أصبحت أكثر خطورة من أي وقت مضى ، فلقد قلت أننا كنا نعيش داخل سجن ، وأنا أعني ذلك بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، فلقد حولت قوات العدو الصهيوني البناية السكنية التي كانت تقع فيها شقة زوجتي و أطفالي إلى ثكنة عسكرية ، وحولت سطح المبنى إلى مرتع للقناصة وأساسات المبنى إلى مرتع للدبابات

والمجنزرات ، وحولت كل شوارع المدينة إلى طرقات خالية بعد أن قامت الجرافات الصهيونية بحفر حفر كبيرة تقطع تلك الشوارع ، ولم تكتف بذلك فحسب ؛ بل فرضت حظراً للتجوال دام أياماً طويلة ؛ وصلت إلى خمسة وعشرين يوماً متواصلة ، رفع بعدها حظر التجوال لعدة ساعات ثم أعيد فرضه من جديد .

خلال تلك الساعات القليلة تمكنت من الوصول إلى إحدى الشقق التي لم يصل إليها العدو ، وكانت تحتوي على كل ما أحتاجه لإعداد العملية ، عملية الرد على اغتيال صلاح شحادة رحمة الله عليه ، ولقد كان معي في تلك الأثناء مراقبيّ سيد الشيخ قاسم وأبي أحمد الخطيب ، ولقد صنعت عبوة ناسفة ووضعتها في حقيبة وأرسلتها مع سيد القاسم لنقطة تم الاتفاق عليها مسبقاً مع وائل العباسي ؛ فأخذ العبوة وأوصلها للقدس المحتلة ، وهناك قام مع مجموعة من رجاله المقاومين بقصد أسوار الجامعة العبرية بالقدس ؛ وفجروا تلك العبوة عبر هاتف محمول ، وبذلك ورغم الاجتياح والحصار ، تمكنا من الرد وبقوة في قلب العاصمة الأبدية لدولة فلسطين بإذن الله .

فتحت تلك العملية الأعين على خلية وائل العباسي مما جعل عمل تلك الخلية صعباً ، ولكن ؛ ولأن تلك الخلية كانت تملك عدداً من العبوات الناسفة الصغيرة التي لا يتجاوز وزن الواحدة منها نصف كيلو جرام ، فلقد تمكنوا من تنفيذ قرابة أربع عمليات استهدفوا خلالها صواريخ للوقود عبر إلصاق تلك العبوات بها ، واستهدفوا أيضاً عدداً من عربات القطار من خلال زراعة العبوات بمناطق قريبة من العربات .

بعد ذلك بأيام معدودة اعتقل أفراد تلك الخلية القسامية التي كانت أكبر خلية لكتائب الشهيد عز الدين القسام بمدينة القدس منذ قامت دولة العدو باحتلال تلك المدينة .

وهنا على الفور بدأت بتنشيط خلية قسامية جديدة ، كنت قد دربت من أوكلت له أمر قيادة تلك الخلية القسامية قبل عدة أشهر وهوالمهندس القسامي "محمود شريتح" ابن مدينة الظاهرية التي تقع جنوب الضفة الغربية بجوار مدينة الخليل ، فلقد كان المهندس محمود شريتح يدرس الهندسة بجامعة يحيى عياش ؛ جامعة بيرزيت ، ولقد كان من أنصار الكتلة الطلابية هناك ، فاختاره أبو علي السلوادي ليكون مهندسنا في جنوب الضفة الغربية ، فقمت بإعادة تدريبه من جديد رغم أن المدن كانت محتلة من قبل دبابات العدو ، وقمت بالإعداد معه لعمليتين استشهاديتين ؛ فزودته بقطع السلاح اللازمة لتشكيل خلية مسلحة تتصدى لقوات الاحتلال بجنوب الضفة الغربية ، وزودته بحزامين ناسفين فأوصلهما لمدينة الظاهرية ، وهناك أعد مع الخلية التي قام بتشكيلها الخطة اللازمة ؛ فنفذ انطلاقاً من الجنوب عمليتين استشهاديتين ، فجّر خلالهما الاستشهاديان أحزمتهما الناسفة بحافلتين اثنتين داخل الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨، كانت تلك الخلية خلية المهندس محمود شريتح من أسرع الخلايا تشكلاً ، ومن أسرع الخلايا اعتقالاً ، فلم تدم تلك الخلية سوى عدة أسابيع فقط لا غير ! نفذَتْ خلالها عمليتين استشهاديتين وبعد ذلك اعتقل كل أفراد تلك الخلية وعلى رأسهم مهندسها وقائدها محمود شريتح ، وهنا قمت باستدعاء مقاوم آخر ممن قمت بتدريبهم سابقاً لكي أعيد تدريبه وإعداده من جديد .

هذا المقاوم الوحيد الذي وجهتُ له توبيخاً قاسياً عندما قمت بتدريبه أول مرة ، فعند بدء

التدريب كنت أنا وهو وعنصرٌ آخرٌ معه مقنَّعين ، وكنا نتكلم باللغة الفصحى ، فقال لي أنه يفضل أن يتلقى تدريبه على العلوم العسكرية على يد المهندس عبد الله البرغوثي ، قبل أن أسأله عن السبب قال أنه يريد أن يتقن عمله العسكري من عبد الله البرغوثي لأنه يشكل بالنسبة له امتداداً ليحي عياش ، فوبخته بقسوة وقلت له ليس هناك من هو بمرتبة الشهيد يحيى عياش ؛ وأن هذا الذي اسمه عبد الله البرغوثي ما هو إلا مجرد مهندس عادي ؛ بل أقل من عادي ، ولقد قسوت عليه قليلاً أثناء التدريب ، الغريب في هذا المقاوم أن أبا علي السلوادي عندما أحضره للتدرب أول مرة لم يُشِر بهويته سوى أنه مقاوم قسامي ؛ فأعطيته اسماً رمزياً للتواصل معه مثل باقي المقاومين الذين سبق لي تدريبهم ، ولكنه أفصح لي فيما بعد أنه أحد أبناء عمومتي وأنه المقاوم القسامي "جاسر البرغوثي" ابن قريتي ، ولم أعلم حقيقة هويته إلا بعد اعتقالي بعدة سنوات عندما التقينا صدفة في أحد السجون ، فتعرفنا على بعضنا البعض بعد أن علم هو حقيقة هويتي وعلم أن من قام بتدريبه آنذاك هو عبد الله البرغوثي ابن عمه .

هذه هي كتائب الشهيد عز الدين القسام ، الصمت والسرية والعمل الجهادي المتواصل دون كلل أو ملل ، لقد استطاعت خلية المقاوم القسامي "جاسر البرغوثي" بعد أن عاودتُ تدريبه مرة أخرى وتزويده بعدد من العبوات الناسفة والأسلحة المختلفة استطاع أن ينفذ عدداً من العمليات الموجعة للعدو الصهيوني .

في تلك الفترة خشيت من أن يكون مصير خلية المقاوم جاسر البرغوثي الاعتقال المبكر مثل خلية المهندس محمود شريتح ، ولذلك قمت بتنشيط عدد من الخلايا القسامية في عدة مدن

أخرى كان أهمها على الإطلاق مدينة الخليل ؛ خليل الرحمن ، لأن مدينة الخليل كانت تملك الآلاف من المقاومين القساميين ، وكانت بحاجة للمهندسين والقادة ، فمنَّ الله على خليل الرحمن بالقائد الحاج عبد الله القواسمي وأبناء أحد إخوانه ، فتجلت مدينة خليل الرحمن وأخرجت أجمل وأحلى العمليات القسامية في تلك الفترة المحرجة ، فترة الاجتياحات .

وهنا يجب أن أوضح نقطة مهمة وهي أني لم أكن أعلم أي اسم من أسماء المقاومين الذين عملت معهم طوال تلك الفترة الممتدة ما بين عامي ٢٠٠٠ و ٢٠٠٣م ، وأن الأسماء التي أذكرها الآن قد عرفتها بعد سنوات من اعتقالي ، فهي ليست أصحاب تلك الأسماء ، فهم إما معتقلون مثل محمود شريتح ووائل القاسم وجاسر البرغوثي وأحلام التميمي وغيرهم ؛ وإما ارتقوا شهداء عند ربهم يرزقون .

فلقد كان موضوع الأسماء خطاً أحمر منعت أحداً من الاقتراب منه ، ولذلك أقول أن الشهيد سيد الشيخ قاسم رغم أنه رافقني على مدى تلك الأعوام هو وأبو أحمد الخطيب إلا أني رفضت أن أعرف أسماءهم رفضاً تاماً ، وكنتُ أحرص دائماً على أن تكون الخلايا التي أشكلها متقنة من ناحية القيادة والإدارة ، حتى لا يؤدي اعتقال أحد تلك الخلايا إلى إحداث ضرر كبير بكتائب القسام .

❀ ❀ ❀

الاجتيـــــاح

في إحدى الاجتياحات الصهيونية للمدن الفلسطينية تم اجتياح مدينة رام الله والبيرة ، وتم محاصرة مقر جهاز الأمن الوقائي بالدبابات ، لم يكن هذا الحصار سوى لعبة أقدمَ عليها أحد أخطر العملاء في تاريخ الشعب الفلسطيني وهو "محمد دحلان" بالتنسيق مع قوات الاحتلال الصهيوني وجهاز الشاباك من أجل هدفين : أولهما أن يقضي على منافسة القوي آنذاك في الضفة الغربية جبريل الرجوب ، وأن يزيحه من طريقه ليستولي محمد دحلان على الأجهزة الأمنية في الضفة الغربية ويسيطر عليها كما سيطر على تلك الأجهزة في قطاع غزة .

فلقد كان عرفات في تلك المرحلة محاصراً وضعيفاً ، فأراد دحلان أن يكون رجل "جورج تنت" ورجل شارون في الضفة الغربية ؛ واعداً إياهم بعد تسلمه وسيطرته على الأجهزة الأمنية بأن يقضي على المقاومة المسلحة بشكل تام وكامل .

هذا السبب رغم خطورته لم يكن يعنيني كثيراً ؛ فكلهم سواء ، جبريل الرجوب أو محمد دحلان كلاب للاحتلال ، لا أكثر ولا أقل ، أما السبب الذي كان يعنيني هو أنه يوجد داخل ذلك المقر العشرات من مقاتلي القسام والجبهة الشعبية ومنهم بلال البرغوثي ابن عمي ورفيق دربي في مقاومة الاحتلال .

ولذلك خضت عدة معارك وكمائن من أجل فك الحصار دون جدوى ودون أي فائدة ،

فلقد كانت القوات الصهيونية أقوى منا بكثير من ناحية العتاد والسلاح ، وبخاصة سلاح الجو ، فلقد كانت طائرات الأباتشي تقصف دون توقف أي هدف تشتبه به .

اعتقل بلال البرغوثي واعتقل العشرات من المقاومين ذلك اليوم بعد أن تكاتف العملاء مع العدو الصهيوني ضد المقاومة ، حزنت ؛ بل لقد بكيتُ لأني شعرت بضعف أمام آلة الدمار الصهيوني ، وخاصة عندما كنت على بعد أمتار أشاهد إخوتي وهم يعرون من الملابس ويقادون إلى مجنزرات العدو لينقلوا إلى المعتقلات الصهيونية ، لم أشعر بلحظة ضعف مثل تلك المرة طوال حياتي ، حياتي التي رأيت فيها كل ما يمكن رؤيته ، وكل ما يمكن أن يؤثر على أقسى الرجال ؛ إلا أني لم أتأثر أبداً إلا في ذلك اليوم وتلك الليلة التي كانت من أطول الليالي في حياتي على الإطلاق !

ما أن بزغ الفجر حتى عدت إلى زوجتي وابني أسامة وابنتي لكي أودعهم متضرعاً بعد ذلك إلى الله عز وجل لعلي ألقاه شهيداً ، ودعتهم وتوجهت أنا وسيد القاسم وأبو أحمد الخطيب إلى منطقة وسط رام الله ، وهناك في منطقة سوق الخضار وبجوار مسجد جمال عبد الناصر ، خضنا اشتباكاً مسلحاً دام قرابة العشرين يوماً فجّرنا خلالها العشرات من العبوات الناسفة ؛ وأطلقنا المئات من الرصاصات ولم نُنْهِ تلك المعركة إلا عندما تلقيتُ قذيفة أطلقت من إحدى الدبابات فأصابت القذيفة المكان الذي أهاجِم العدو منه ؛ فأصبت إصابة شديدة كدت أفقد منها يدي اليمنى ، فنقلني إخوتي سيد وأبو أحمد إلى إحدى المحلات التجارية ، وهناك عولجت ، ولقد تركت تلك القذيفة أثرها عليَّ من عدة نواحٍ ؛ الناحية الجسدية فلقد أصابت

ذراعي بالكسر من عدة أماكن ، وكاد كف يدي أن يبتر ، وكدت أفقد إصبعي؛ بل أهم أصابع يدي وهو إصبع السبابة الذي كنت أطلق به زخات الرصاص ؛ فلقد أصيب ذلك الإصبع وتم تغريزه بما لا يقل عن ثماني غرز ، مما جعلني غير قادر على خوض المعارك المسلحة لعدة شهور بعد تلك الإصابة .

وهنا يجب ألا أنسى أن أخي أبا علي السلوادي عندما علم بعد ذلك جن جنونه ، ولكن أحمد الله أنه علم بعد أن تماثلت للشفاء .

أما من الناحية النفسية فلقد جعلتني أقرب إلى الله عز وجل من أي وقت آخر.

❀ ❀ ❀

قلـــب أمـــي

في إحدى مراحل مطاردتي تعرض قلب والدتي للجلطة مما أدخلها المستشفى لتخضع لعملية جراحية ؛ حيث كانت تقيم هي ووالدي في العاصمة الأردنية عمّان ، وعندما وصلني الخبر كان لزاماً علي أن أطمئنّ عليها بنفسي رغم أن هناك من كان يزورها ويطمئنني عليها ، إلا أني ولخطورة وضعها قررت أن أطمئن عليها بشكل مباشر وأن أطمئنها علي لكي أرفع من معنوياتها وأشد من عزيمتها ؛ فلقد كان قد مضى على مطاردتي عدة أعوام لم أتمكن من الحديث الهاتفي معها أو مع والدي بشكل نهائي .

ويجدر القول هنا أني طوال فترة مطاردتي لم أستعمل الهاتف الجوال أبداً وتحت أي ظرف من الظروف ؛ بل كنت أسافر من مدينة إلى مدينة لكي أنهي أمراً لا يتجاوز الحديث عنه سوى بضع دقائق ، فلقد كنت أعلم مدى خطورة استعمال تلك الهواتف النقالة ومدى قدرة العدو على تعقب المكالمات وتحديد موقع المتصل ، ولأن العدو يملك عدداً من طائرات الاستطلاع المزودة بصواريخ موجهة تحلق على مدار الساعة في أجواء مختلف المدن الفلسطينية ، فلقد كان الحديث عبر الهاتف الجوال ضرباً من ضروب الجنون .

الجنون والتحدي هو عشقي وهوايتي ، ولذلك رفعت الهاتف الجوال وتحدثت مع والدتي لعدة دقائق ، وما أن انقطع الإرسال حتى أمسكت الهاتف الأرضي وعاودت الاتصال

ثانية بعد أن اطمأنّ كلانا على الآخر ، وبعد أن أصبحت معنويات والدتي عالية تعانق السماء فلقد مازحتها كثيراً حتى قيل لي إن عينيها اللتين كانتا تبكيان على فراقي وتبكيان حزناً علي ؛ أصبحتا تذرف الدموع من شدة الضحك على النكت التي كنت أقولها لها ، بتلك البساطة اتصلت؛ وبتلك البساطة كانت خطوط الاتصال تقطع الواحد تلو الآخر ، أما سبب تلك الانقطاعات فلقد كان سقوط القذائف الواحدة تلو الأخرى ، أين وكيف ؟!

عندما اتصلت أول مرة من هاتف نقال وبعد عدة دقائق تجاوزت الخمس عشرة دقيقة أو أقل ، قامت قوات الاحتلال وعبر طائرة الاستطلاع بقصف سيارة متوقفة بأحد شوارع مدينة نابلس بعدة صواريخ موجهة ، فلقد قمت بتركيب شبكة من أجهزة مقاومة التعقب وأجهزة بتوجيه التعقب نحو مكان آخر وركّبت تلك الأجهزة على بعض أبراج الإرسال ورُكّب أحدها على إحدى السيارات التي قمت بشرائها وتجهيزها لهذا الهدف ، وهو تضليل أجهزة العدو الاستخبارية والإلكترونية ، فقصف العدو السيارة ظناً منه أني موجود داخلها وأجري تلك المكالمة منها ، فأصبحت السيارة كومة من الصفيح المحترق !

أما أنا فتناولت تفاحة من صحن للفاكهة كان أمامي ووضعتها بعد أن قطع إرسال الجهاز النقال واتصلت من جهاز اتصال أرضي هذه المرة ؛ وبدأت بأكل التفاح الواحدة تلو الأخرى ، وبالحديث مع والدتي وإلقاء الطرائف عليها الواحدة تلو الأخرى ؛ حتى أني أقول أنه رغم عدم سماعها لصوتي منذ مدة طويلة إلا أنها ملت من تلك الطرائف ؛ فكنتُ أودعها مراراً دون أن يغلق أحدنا السماعة ؛ حتى قام الاحتلال بإغلاقها هذه المرة أيضاً بواسطة قذائفه ؛ فلقد داهمت

قوات الاحتلال الصهيوني أحد المباني السكنية التي كانت قيد الإنشاء وبمراحلها النهائية ، وأمطرت تلك البناية بوابل من القذائف وطالبتني القوات بتسليم نفسي .

وعندما لم أستجب لهم قامت القوات باقتحام تلك البناية ، ولقد سبقت جنودَها المقتحمين كلابٌ تحمل كاميرات مراقبة تنقل لهم الصورة ، وتنقل لي أيضاً نفس تلك الصورة ! فلقد كنت في مرحلة سابقة قد فككت الشيفرة المستعملة بإرسال الصور عبر تلك الكاميرات ، فأصبحت أرى ما يرونه ، وعندها قمت بتفجير عبوة ناسفة أدت لقتل أحد الكلاب وإصابة أحد الجنود .

أما أنا فرغم عمليات البحث والتفتيش التي استمرت لساعات عديدة فلم يجدوني لأني في تلك الأثناء كنت منشغلاً بأكل البرتقال بعد أن لم يعد لدي تفاح ! لم أكن بمدينة نابلس حيث فجروا السيارة ولم أكن بمدينة رام الله حيث دمروا تلك البناية ، بالمناسبة تلك البناية تعود لأحد عملاء إسرائيل الذين كانوا يتاجرون بالأراضي الفلسطينية ويبيعونها للصهاينة ؛ ولذلك فلم أهتم بدمار تلك البناية بل كنت مسروراً جداً لما حل بها .

كنت هناك جالساً على إحدى الشرفات المطلة على المسجد الأقصى في القدس ، كنت هناك في قلب المدينة المقدسة ، وهنا حمدت الله على نجاتي وعلى تلك الصفعة التقنية التي وجهتها لذلك العدو ، لقد كلفت تلك الصفعة التقنية عدة عشرات الآلاف من الدنانير ، وعدة أيام من العمل المتواصل من قِبَل رجال كتائب القسام أعز الله بهم الإسلام وأعز الله بهم فلسطين؛ أم الرجال وصانعة الرجال .

آه من قلب أمي وألف آه ، دعواتك لي يا أغلى مخلوقة بالوجود، يا أمي الحبيبة ، دعواتك دعواتك .

صفعتها ، فهل ينتقض وضوئي ؟!

لقد حدث أني قمت بصفع امرأة ليست من محارمي على خدها ، فهل ينتقض وضوئي جراء تلك الصفعة ؟

الصحيح أن الإجابة على هذه الأسئلة الدينية لم تكن هي ما يشغل بالي ؛ لأني لا أذكر أصلاً أكنتُ على وضوء عندما صفعتها أم لم أكن على وضوء ؛ فبعد أن صفعتها توضأت وصليت .

إن الذي كان يهمني هو سبب تلك الصفعة ، صفعة قوية ؛ بل إنها مؤلمة جداً تلك التي نالتها المرأة مني ، تعود جذور تلك الحادثة عندما أوصل لي جهاز الرصد القسامي عدة طلبات من امرأة تطلب لقائي لأمر هام ، ولقد كانت تلح كثيراً على هذا الطلب ، ولأن الناحية الأمنية كانت لا تشكل خطراً علي ؛ فلقد وافقت على لقائها بعد أشهر من تكرار الطلبات .

- السلام عليكم .
- **وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، خيراً يا أختي ؟**
- أريد أن أكون شهيدة في سبيل الله .
- **هناك مئات من الاستشهاديين الرجال ينتظرون دورهم للمشاركة في هذا النوع من العمليات .**

- ألم تعمل أحلام التميمي معك ؟
- **نعم عملت ، ولكني لم أكن أعلم أصلاً أنها فتاة إلا بعد أن اعتقلت .**
- أريد أن أكون شهيدة .
- **لماذا ؟**

وقبل أن تجيب أشرت لها بأن تضع يدها على المصحف الشريف ، صمتت طويلاً ثم قالت أنها متزوجة منذ أعوام طويلة ؛ وأنها لم تكن تنجب وأنها ما إن تحمل حتى يموت الجنين في بطنها، وأن أهل زوجها قد أثقلوا عليها وحولوا حياتها إلى جحيم ، وأنه رغم حب زوجها لها إلا أنه لم يعد يقوى على الصمود في وجه أهله ، ولذلك أريد أن أفارق الحياة لأرتاح من همومها .

ما إن رفعت يدها عن المصحف حتى كانت يدي تحط على وجهها كأنها مطرقة ، فسقطت على الأرض باكية وبكت معها إحدى الأخوات التي كانت موجودة هناك مع زوجها المقاتل القسامي .

قلت لها : **" اذهبي إلى بيتك وكوني واثقة بأن الله سوف يرزقك بثلاثة أولاد وثلاث بنات، اذهبي وتوكلي على الله ، فمشكلتك حلها بسيط ، عودي إلى بيتك ؛ توضئي وصلي وادعي الله ، الله مجيب الدعاء ، الله الذي يجب أن لا تقنطي من رحمته أبداً "** .

تركتها فأوصلها المقاوم القسامي مع زوجته إلى منزلها ، في الطريق كفت عن البكاء وسألت زوجة المقاوم : " هل قال عبد الله البرغوثي ثلاثة أولاد وثلاث بنات ؟! " ، فردت عليها : " نعم ، قال ثلاثة وثلاثة " .

عاد المقاوم القسامي بعد أن أوصل المرأة ، عاد إلي فوجدني صامتاً ، ورغم أنه أمضى طوال اليوم معي إلا أنه لم يسمع صوتي إلا وأنا أقرأ القرآن في الصلاة .

كان هناك سؤال يحيرني : إن فجرت تلك المرأة نفسها هل تكون شهيدة أم قاتلة لنفسها ؟ شهيدة أم قاتلة ؟ فأنا لست بعالم دين ولا أستاذ بعلوم الفقه الإسلامي ، لست مفتياً ؛ وحتى أني لست شيخاً من أولئك الذين يمضون وقتهم في المساجد ودور العلم وبحضور جلسات دروس الدين، أنا "عبد الله البرغوثي" ، مسلم لا أكثر ولا أقل ، أصلي نعم ، أصلي وأصوم ، وأمارس السنة النبوية قدر الإمكان ؛ نعم قدر الإمكان .

أنا مجرد مهندس قسامي ، مهندس فقط لا غير ، مهندس قسامي لا يكذب أيضاً ، يا الله لقد قلت لها أن الله سوف يرزقها بثلاثة أولاد وثلاث بنات ! يا الله ، نحن الآن في شهر رمضان المبارك ، ولقد وعدت وأقسمت ، أعنّي يا الله أعنّي يا الله.

ما هي إلا أيام معدودة حتى كنت أجهز أحد الاستشهاديين ، وأظنه كان أيمن بحر ، فقال لي : " يا شيخ أوصني ، قل لي ماذا تريد أن أقول لنبينا محمد ﷺ إذا ما استشهدت وصعدت روحي للجنة ؟ " ، فقلت له : **"سلم عليه ، وادع لي الله أن ييسر لي أمري "** ، قال: " هل تريد مني أن أتشفع لك عند الله ؟ فأنا استشهادي " .

وهنا تذكرت الصفعة ، تذكرت المرأة فقلت له : **" لا تشفع لي ؛ فسوف يشفع لي أخوك أسامة حلبة إن شاء الله ، أما أنت فأريد منك أن ترجو الله عز وجل أن يبعد الغم والهم عن أختي فلانة بنت فلان ، وأن يرزقها بثلاثة أولاد وثلاث بنات ، فلقد وعدتها بذلك "** ، وقصصت القصة

على كل من أسامة حلبة وأيمن بحر .

ما أن انتهى شهر رمضان المبارك وحل العيد الصغير ، وما أن جاء العيد الكبير بعد نحو شهرين ، حتى وصلني خبر حمل تلك الأخت ، وما هي إلا أشهر معدودة حتى كانت قد أنجبت ولداً جميلاً ، أتبعته بعد نحو عشرة أشهر بولد آخر أجمل من السابق ثم ولد ثالث ، أسمته "عبد الله".

تلك الأسئلة الفقهية كانت دائماً تزعجني ، ولكن الحمد لله أنه كان حولي من الإخوة من هم أكثر مني علماً ومعرفةً بأمور الدين ، أعلم أنه من يُقتَل في سبيل الله ؛ و" اللهِ" وحدَه فإن مصيره الجنة والمغفرة ، وأن من قتل نفسه لحاجة من حاجات الدنيا الزائلة فإن مصيره العذاب الأليم ونار جهنم ، أعلم ذلك ، ولكني أعلم أني لست بعالم دين ، فأنا مجرد مهندس على الطريق .

مجرد مهندس ، لا أكثر ولا أقل !

بالله عليكم لا تحمّلوني أوزاركم ، بالله عليكم ، هذه المرة كاد أن يُقتل لولا ستر الله ولولا لطفه بي وبكتائب القسام ، وصل لي استشهادي كان قد أعده الإخوة لتنفيذ إحدى العمليات الاستشهادية ، "استشهادي" ؛ هكذا أراد هو لكني لم أُرد ، ولم أسمح له بذلك رغم أنفه **!**

هناك في كوريا الجنوبية قبل دراستي للهندسة درست مساقات الأدب الكوري ، وكان أحد تلك المساقات هو قراءة الوجوه وتفسير تعابيرها ، هناك في كوريا الوجوه أكثر إخفاء لما يكمن داخل القلوب ، أما هنا في فلسطين ؛ فإن الوجوه مرآة للقلوب والعقول .

جاءني بعد إجراءات أمنية أُعدت سلفاً لاستقباله وإعداده للعملية الاستشهادية ، فقمت بتصويره وإلباسه الحزام الناسف وإعداد الملابس المناسبة للموقع المستهدف .

لم أكلمه ولم أسأله أي سؤال طوال تلك الفترة ، لكن عندما وصل إلى الباب صافحته وشددت على يده وقلت : **" لماذا تريد أن تفجر نفسك ؟ لماذا تريد أن تكون شهيداً ؟ " .**

صمت وطال صمته ؛ فقمت بالإطاحة به أرضاً وتكبيله وفك الحزام الناسف عن جسده ، وطلبت من إخوتي المرافقين لي سيد الشيخ قاسم وأبي أحمد الخطيب أن ينقلوه للإخوة في وحدة أمن القسام .

لم يسألني الإخوة عن سبب ما فعلته ، فلم تكن هذه عادتهم؛ فهم قساميون صامتون ، وهم يعلمون أن الأمر خطير بل أشد من الخطير ، فلذلك سارعوا إلى إيصاله مكبلاً معصوب العينين والفم إلى الإخوة بوحدة الأمن القسامي في الضفة الغربية والقدس الشريف ، ما إن عادا إلي مسرعين حتى أعطيتهم عنوان نقطة معينة ، فذهبا إليها وأحضرا أخاً استشهادياً كان ينتظر في تلك النقطة ، فقمت بإعداده وتجهيزه وذهب بعد ذلك إلى حال سبيله ؛ إلى لقاء ربه بعد أن وصل ونفذ عمليته الاستشهادية ، بعد ذلك انشغلت عدة أيام بمتابعة أعمال جهادية بمدينة أخرى ، وما إن عدت إلى المدينة التي كانت ساحة تلك الحادثة ؛ حتى ذكرني الإخوة بذلك الشاب ، فذهبت لرؤيته فوجدت شاباً قد أُنهِك من التحقيق بشكل كامل .

فقلت لسيد الشيخ قاسم : **" أنا لم أطلب التحقيق معه ، أنا طلبت أن يوضع هناك لدى أمن القسام فقط لا غير "** ، وهنا أقول أن التحقيق معه كان قاسياً جداً أوصله إلى شفير الموت بكل ما تحمله الكلمة من معنى ! فلقد وجدت شبه شاب ، ولم أجد تفسيراً لما حدث سوى سوء تنسيق كنت أنا المسؤول عنه وليس سيد الشيخ قاسم أو الإخوة بأمن القسام ؛ فلقد ظنوا أن هناك داعياً أمنياً لما حدث ؛ وخاصة بعد أن شاهد سيد الشيخ وأبو أحمد كيف قمت أنا بالتصرف مع ذلك الشاب عندما أطحت به أرضاً وكبلته ونزعت منه الحزام الناسف ، طلبت منهم أن يهتموا به وأن يعيدوا له صحته التي كان قد فقد منها الكثير .

عدت له بعد يوم واحد وسألته : **" لماذا تريد أن تفجر نفسك ؟ "** ، قال : " أنا لست عميلاً ، أقسم بالله العظيم " .

قلت : **" أعلم ذلك علم اليقين ، ولكن ما لا أعلمه هو سبب إقدامك على أن تكون استشهادياً ، قل لي واذهب إلى سبيل حالك "** .

قال: " أنا والدي كان عميلاً في الانتفاضة الأولى" ، قلت : **" أعلم ، ولكن والدك قد تاب وحج بيت الله ، وقد توفي منذ أعوام "** .

قال: " رغم ذلك فإن سمعته السيئة ما زالت تلاحقنا " ، قلت: **" كيف؟ "** ، قال : " لقد أنهت أختي الدراسة الجامعية ، ولقد تم خطبتها لأحد زملائها في الجامعة ، ولكن قبل موعد الزواج فسخ ذلك الشاب خطبته وفسخ عقد الزواج وسافر خارج فلسطين إلى الأردن ، ولأني أكبر إخوتي قررت اللحاق به وسؤاله عن سبب ما قام به ، فأخبرني أنه قام بما فعله لأن أهل القرية كانوا يلومونه على خطبته من ابنة والدي ، والدي الذي كان - رغم توبته وحجه وموته - ما يزال عميلاً في نظر أهل القرية ، ولذلك أريد أن أنفذ عملية استشهادية حتى يقال أن عائلتي هي عائلة الشهيد ، الاستشهادي المقاوم البطل ، اعلم يا أخي أن والدي قد أنجب ست بنات من أمي وبنتين من زوجته الأخرى ، فكيف أستطيع صون عرضي وصون عرض أخواتي إن لم أقم بما أردت القيام به ! " .

قلت : **" ألا تعلم أن الله عز وجل يسأل كل من يقتل نفسه عن سبب قتله ، وأن من قُتل ليقال عنه أنه بطل ؛ فهو قتيل لا شهيد ؟! وأن مصيره جهنم وبئس المصير ؟! "** ، قال : " أعلم ، والله إني أعلم ، ولكن الله غفور رحيم ".

اعتذرت منه عما لحق به من جراء التحقيق معه ، واعتذرت منه لعدم موافقتي على أن

يكون استشهادياً ، ودعته وأوصله الإخوة الى حيث كان يريد ؛ إلى قريته .

مضت عدة أيام لم تطل عن أسبوع ؛ قام خلالها ذلك الشاب بشراء مسدس وانطلق لإحدى المدن الصهيونية بعد أن ترك وصية يقول فيها أنه يقصد وجه الله تعالى بعمله هذا ، فأطلق النار وأصاب عدداً من الصهاينة وقُتل ، قُتل أم استشهد ؟ لا أعلم ولن أعلم أبداً ؛ فلا يعلم ما في القلوب سوى رب القلوب ، أما أنا فمجرد مهندس لا أكثر ولا أقل .

عندما كنت أنظر إليه أثناء تسجيل شريط الفيديو وهو يقرأ وصيته التي كتبها هو بنفسه ، فإنه لم يذكر عدداً من الكلمات التي كنت أسمعها ممن سبقوه ليكونوا استشهاديين ، فهو لم يقل كلمة "بإذن الله" ، ولا كلمة "بعون الله" ، ولا حتى كلمة "إن شاء الله" ، لم يقل "بسم الله وعليه أتوكل" ، أو "أنا الشهيد الحي بإذن الله فلان"، قال : "أنا فلان ابن فلان ابن فلان" ، أما وجهه فلم أرَ فيه نوراً أو هالةً بل رأيت غضباً وحزناً ! حزناً ؟! كيف يحزن وهو ذاهب عند رب العباد؟! غضباً ؟! وكيف يغضب وهو من طلب أن ينفذ تلك العملية وأصر على تنفيذها ؟!

الاستشهاديون الآخرون كانوا كلهم سعداء فرحين متشوقين للقاء الله ، بل إني أقسم بالله العظيم أن بعض أولئك الاستشهاديين كان هو من يشد الحزام الناسف حول نفسه ! وكان يطالب بكمية أكبر من المواد الناسفة ! بل إن بعض الاستشهاديين قال - والله يشهد على ذلك- عدد من سوف يقتلهم ويصيبهم ، ولقد صدقوا كلهم دون استثناء .

أحمد الله على أني لم أرسله ، وأحمد الله على أنه لم يمت أثناء التحقيق معه عند الإخوة ، قلت أنا مجرد مهندس لا أكثر ولا أقل ، فأعني يا الله على أن لا أخطئ ولا أزل .

الشهيد مجد البرغوثي

أظن أنك يا ابنتي يا الجملة ويا ملاكي الحارس ، قد لاحظت مدى كرهي وسخطي على من يسمون أجهزة الأمن الفلسطينية ، مثل جهاز الأمن الوقائي وجهاز المخابرات العامة ، هذا السخط والكره مرده عدة أسباب :

أهمها ذلك الفساد المالي والنهب الذي مارسه قادة تلك الأجهزة الأمنية والذين كانوا مجرد أناس عاديين ، وأقل من عاديين ؛ فأصبحوا بعد توليهم قيادة تلك الأجهزة أصحاب أموال وعقارات في كل مكان ؛ من دبي مروراً بعمّان وصولاً إلى ما وراء البحار ! وبسبب فسادهم المالي أصبحوا ألعوبةً بيد من يدفع لهم أكثر ؛ سواء من كان يدفع من الصهاينة أم من الأمريكان أم البريطانيين أصحاب وعد بلفور المشؤوم .

عندما شكلت جهاز الرصد القسامي بالضفة لمعرفة ما يدور في تلك الأجهزة بعد اعتقالي لدى إحداها في مطلع الانتفاضة ؛ علمت من خلال ذلك الجهاز القسامي الراصد العجب العجاب من أولئك القادة ومحافظي المدن مثل محافظ مدينة رام الله ممن كانوا يديرون بيوتاً للدعارة ويديرون عصابة للاتجار بالمخدرات والسيارات المسروقة ، بل إن قادة تلك الأجهزة الأمنية كانوا يبتزون العملاء الذين كانوا يعملون في جهاز الشاباك الصهيوني ، ويجبرونهم على دفع مبالغ مالية جراء التغاضي عما كانوا يفعلونه ضد أبناء فلسطين مِن تجسُّس عليهم وأعمال ضدهم ، بل إن هناك من قادة الأجهزة الأمنية الفاسدة من كان يقوم بإسقاط

بعض الشباب الفلسطينيين الوطنيين عن طريق بنات الهوى ، هؤلاء البنات اللواتي كن يعملن ضمن إطار هذه الأجهزة الأمنية ، ولم يكن عملهن سوى استدراج الشباب للوقوع في الرذيلة ثم ابتزازهم وإسقاطهم في شباك العمالة لصالح تلك الأجهزة ولصالح الصهاينة فيما بعد ، أما أكثر ما كان يؤلم فما اكتشفناه عن تلك الأجهزة القذرة وهو استعمالهم لأشد وأقسى أساليب التعذيب ضد أبناء المقاومة وأقاربهم .

ورغم أني قد أُسرت وأصبحت داخل زنزانتي بعيداً عن ساحات وشوارع الضفة والقدس إلا أن المعلومات وبحمد الله ما زالت تصل لي كلما أمكن من رجال الظل القسامي .

لقد وصلني يا ابنتي الحبيبة كيف قامت تلك الأجهزة الأمنية الحقيرة بتعذيب عم لك وهو "مجد البرغوثي" داخل جهاز المخابرات العامة تعذيباً جنونياً لا إنسانياً ، استمر ذلك التعذيب لأيام وأسابيع طويلة .

كنت أنا في داخل زنزانتي أغلي قلقاً على ما كان يجري لمجد البرغوثي هناك في زنازين تحقيق المخابرات ، تلك الزنازين التي كانت داخل مقر جهاز المخابرات العامة الذي لا يبعد سوى أمتار قليلة جداً عن مقر ذلك الحقير العبثي "محمود عباس" ، كان التحقيق يجري بإيعاز منه شخصياً من أجل القضاء على ما تبقى من رجال حركة المقاومة الإسلامية حماس في الضفة الغربية والقدس المحتلة ، وليس بعيداً عن تلك الزنازين كان خالك "عبد الله البرغوثي" يتعرض لأشد صنوف العذاب على يد جهاز الأمن الوقائي بمدينة رام الله ، وكان حوله الكثير من أبناء عائلتي وأبناء حركة المقاومة الإسلامية حماس ممن يعَذَّبون ، ليس لسبب ؛ سوى أنهم

مقاومون ، أو مناصرون لنهج المقاومة .

مرت الأسابيع فصعدت روح عمك الشهيد مجد البرغوثي ابن قرية كوبر ؛ مجد البرغوثي المؤذن بمسجد تلك القرية البرغوثية المقاومة ، استشهد تاركاً أطفاله بلا أب ، وتاركاً القرية ومسجدها بلا مؤذن .

حزنت القرية وتألمت وبكى أطفاله على فراقه وبكى الرجال ، الرجال عندما شاهدوا جثمانه الطاهر قد امتلأ بعلامات التعذيب بالسياط ، وعذاب الكهرباء صعقاً ، فاستشهد .

بعد أشهر طويلة على استشهاد الشهيد مجد البرغوثي ، أطلق سراح خالك عبد الله علي البرغوثي من زنزانة التحقيق عند جهاز الأمن الوقائي ، أطلق سراحه بعد أن شارف على الموت شهيداً تحت سياط التعذيب ، لكن الله قدر له النجاة ، وقدر الخزي والعار لرجال سلطة الفساد والإفساد ؛ سلطة ذلك العبثي محمود عباس ولصوصه محمد دحلان وجبريل الرجوب وتوفيق الطيراوي .

وهنا يا ابنتي الجميلة ويا ملاكي الحارس ؛ اسمحي لي أن أذكر بعض الأبيات والكلمات المتشابكة لعلي أنفس قليلاً ما بداخل صدري من ألم وحرقة على ما آلت إليه أمور فلسطين في ظل حكم أولئك الطغاة .

مساجد الدار

قرآن ربي وسنة النبي المختار *** أصبحت رماداً فأين الثوار

مستوطن محتل طغى وتجبر *** وسلطة العهر ترى وتتمختر

كلاب العدا بقرانا تدور *** وأشباه رجال تشترى بالدولار

أماتوا الجهاد ودمروا المشوار *** باعوا الوطن والدين والثوار

تعاهدوا مع المحتل بل أكثر *** تحولوا لسجانين جلادين وأحقر

يقتلون أبناء جلدتهم فاحذر *** فإن فلسطين براء من أولئك الأشرار

فهم زرع شيطان بقلب الدار *** عملاء احتلال بلا مشاعر

شل عقلي وأصبح بلا تفكير *** فالوضع بات أخطر من الخطير

فالله لما بالقوم لا يغير *** إن عملهم بيدهم لم يتغير

قم يا مؤذن كبر وأعلن الاستنفار *** على المحتل وعلى عميله الأحقر

ألم يحرق مجنونهم المنبر *** ألم يبنوا ويعلو الجدار

وأحاطونا بأسوء حصار *** ألا يكفينا صبراً وانتظار

ألسنا عباد الواحد القهار *** ألسنا عباد رب الأبرار

أم أصبحنا خرافاً تنحر *** قل لي بربك باختصار

أين المجاهدون أين الأحرار *** أين رجال فلسطين الانتصار

هل أصبحوا شهداء في القبور *** أم أصبحوا نسياً بأقبية الأسر

أعلم أن الشمس سوف تشرق ، وأعلم أن ظلم عباس ومن معه لن يدوم وأن مصيرهم لن يكون سوى مزابل التاريخ ، وأعلم أيضاً أنه ليس بعد القدوس إلا القدس والقسام .

❀ ❀ ❀

مريانا أم صفـــاء ؟!

بعد أعوام على مطاردتي مع زوجتي وابنتي تالا وابني أسامة قدر الله أن تحمل زوجتي في تلك الظروف الصعبة ، ففي بداية الانتفاضة كنت أملك المال ، بل أمتلك الكثير والكثير من المال ، ولكن بعد اعتقالي لدى أجهزة أمن السلطة ونهب تلك الأموال ، اضطررت لبيع ما يمكن بيعه من ذهب وسحب ما كانت تملك زوجتي من مال ، لكن الانتفاضة والمقاومة أكبر بكثير من أن يستطيع رجل واحد تلبية ولو جزء بسيط من احتياجاتها .

فلقد وصل سعر الرصاصة الواحدة لثلاثة دولارات ، نعم ثلاثة دولارات ، وصولاً لخمسة دولارات حسب نوع الرصاصة والسلاح ، ولذلك بحسبة بسيطة جداً فإن أي جولة تخوض فيها اشتباكاً مسلَّحاً ، كنا نطلق عدة مئات من الرصاصات ؛ وهذا يعني آلاف من الدولارات في جولة اشتباك مسلح .

عدا عن شراء الأسلحة التي أصبحت نادرة وأصبحت أسعارها جنونية ، فالضفة الغربية محاصرة ولا مجال لشراء الأسلحة بها سوى من داخل أراضي فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م من تجار السلاح ورجال المافيات ، ومع تقدم أعوام الانتفاضة العام تلو العام كانت الأسعار ترتفع ، ولذلك أصبح أبو علي السلوادي هو من يمول كل تلك النفقات ؛ وأكثر من ذلك فلقد كان هو من يمول كل ما تحتاجه كتائب القسام ويمول احتياجات أسر مقاتلي القسام المطاردين.

خلال تلك الفترة شهدت المقاومة حالة من الاستقرار المادي ومن القوة الكبيرة جداً من خلال شراء كل ما تحتاجه من سلاح وعتاد وسيارات ، ومن استئجار مساكن ومواد للصناعات العسكرية ، لكن بعد تلك الفترة من الاستقرار المادي قامت قوات الاحتلال بشن حملاتها واقتحاماتها ضد البنوك والمصارف المالية ، وضد محاولات الصرافة وتبديل العملة ، واعتقلت كل من يشتبه فيه بأنه من ممولي المقاومة الفلسطينية ، واستولت على الملايين من الأموال ، مما أدى إلى وقوعنا بضائقة مالية أكبر بكثير من السابقة ، وخاصة أننا كنا قد توسعنا كثيراً بعملنا ، ولقد كان هناك التزامات مالية مثل أجور المنازل المستأجرة ومصروف المطاردين ومصروف عائلاتهم المطاردة معهم .

في تلك الظروف قدر الله يا ابنتي أن تولد أختك ؛ فبسبب الاعتقالات الكبيرة أصبحت حركتي صعبة جداً وأصبحت حركة مساعدينا أصعب وأصعب ، فلقد أصبح سيد الشيخ قاسم وأبو أحمد الخطيب مطلوبين أيضاً لقوات العدو ، وأصبحت حركة أبي علي السلوادي مستحيلة في ظل تلك الظروف .

وقدر الله أن تتساقط الثلوج بشكل كبير مما أدى إلى إغلاق شوارع مدينة رام الله لعدة أيام مما أتاح لعدد من رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الفرار من أحد المعتقلات المجاورة لمدينة رام الله وهو معتقل "عوفر" ، ففرضت قوات الاحتلال منعاً للتجول على المدينة ، وأصبحت مجنزرات تلك القوات تتجول في شوارع المدينة على الثلوج التي كانت تكسو تلك الشوارع ، وفي مساء يوم الجمعة ١٣/ ١/ ٢٠٠٣م توجب نقل والدتك إلى المستشفى ، لم يكن

بذلك اليوم وبتلك الليلة وفي الظروف التي قد ذكرتها ، سوى أنا وأمك وأنت يا تالا وأخوك الرضيع أسامة .

كنت قد أعددت خطة لإدارة عملية ولادة أختك الصغيرة ، لكن الظروف الميدانية منعت تلك الخطة من أن ترى النور ، لكن الله عز وجل كان دوماً مع رجال فلسطين المقاومة ؛ فلسطين أرض الرباط والمرابطين ، وهنا طلبت منك أن تعتني بأخيك الرضيع ، ورغم أن عمرك في تلك الأيام لم يكن قد تجاوز الثلاثة أعوام ونصف إلا أنك قمتِ برعايته ورعاية نفسك جيداً !

تركت المنزل أنا ووالدتك محاولين التوجه بالسيارة إلى أحد المشافي المجاورة وهو مشفى الهلال الأحمر بمدينة البيرة ، لكن السيارة لم تتمكن من السير في شوارع المدينة التي كانت قد أُغلقت بسبب الثلوج ، ولأن جنود الاحتلال كانوا لا يتنقلون إلا بواسطة مجنزرات فلقد استطعت أن أميز الشوارع التي سلكتها تلك المجنزرات في إطار فرضها منع التجول وبحثاً عن الفارين من رجال الجبهة الشعبية الأبطال من معتقل "عوفر" ، ولأن معتقل عوفر ومدينة رام الله ومدينة البيرة متلاصقون بشكل كبير ؛ فإن المساحة التي كانت متاحة للفرار كبيرة جداً مما أدى لنجاح تلك العملية المميزة .

سيراً على الأقدام فوق الثلوج اجتازت زوجتي الطرقات وصولاً إلى المشفى ، هناك وضعت ابنتي "مريانا" ؛ أقصد "صفاء" ، فلقد قمت بتسجيل المولودة من خلال عقد زواج مزور وبطاقات للهوية مزورة أيضاً ، تفادياً لتسريب الخبر للعدو الصهيوني من جهة ولقوات الأمن الفلسطيني من جهة أخرى .

بعد أن وضَعَت أمك المولود ، عدت أدراجي لأطمئن على أطفالي هناك ، وبقيتُ عدة ساعات أتنقل بين المشفى والمنزل ، حتى طلع الصباح وبدأت جرافات بلدية البيرة تحاول فتح الطرقات بعد انسحاب مجنزرات العدو ، وهكذا أحضرت سيارتي لنقل زوجتي من المشفى إلى البيت بمجرد أن فُتحت الطرقات صباحاً ، في تلك الليلة لم يكن في المشفى إلا عدد قليل جداً يُعد على أصابع اليد الواحدة مما جعل الأمور تسير دون مشاكل داخل المستشفى ، ووالدتك رغم ألمها ؛ فقد ساعدها ربنا وسهّل أمور ولادتها بحمد الله .

بالمناسبة يا ابنتي ؛ فلقد كان اسم صفاء في تلك الأوراق "مريانا" ولم تكن مسلمة بل كانت نصرانية من بيت لحم ! فلقد كانت تلك إحدى الهويات التي تسترتُ بها من المطاردة تلك الفترة ؛ فلقد كنت نصرانياً وكذلك زوجتي وأنت يا تالا وأخوك أسامة ، لم يكن طبعاً اسمك تالا ولا اسم أخيك أسامة ؛ بل كنت "سارة" وكان أخوك "إلياس" !

بعد اعتقالي بقرابة العام تذكرت أن أختك لم تكن تملك شهادة ميلاد باسمها واسمي واسم والدتها الحقيقيين ، فكلفت المحامية "بثينة" وقامت مديرة جمعية مانديلا المختصة بشؤون الأسرى بالحصول على بطاقة شهادة ميلاد لمريانا لتصبح صفاء ، صفاء عبد الله البرغوثي .

عندما اعتقلت لم يكن أحد في الدنيا يعلم أني قد أصبح لدي ثلاثة أطفال ، حزنت والدتي على اعتقالي ؛ ولكن سرعان ما فرحت عندما علمت بالمولودة الجديدة التي كانت تحمل اسمها ؛ اسم والدتي ، ففرحت أمي صفاء البرغوثي لأجل ولادة صفاء عبد الله البرغوثي .

زوجتي التي كانت عضداً وسنداً لي طوال فترة مطاردتي لم تكن يوماً عبئاً علي ؛ بل

كانت دافعاً لي لأستمر في مقاومتي بسبب صبرها وإيمانها بما أقوم به ، فبعد أن كانت تعيش حياة ملؤها الرغد وبحبوحة الحال ؛ أصبحت تعيش مطارَدةً بلا بيت ثابت ولا مكان هانئ ، فلقد كنا ننتقل خلال تلك الأعوام من مدينة إلى أخرى ومن بيت إلى آخر ، حتى أني لا أكاد أذكر عدد تلك البيوت والأماكن ، عندما وُلدت تالا ارتدت أكثر من مئة فستان أول مئة يوم لها في هذه الدنيا وارتدت الحلي الذهبية ، أما صفاء فلم ترتدِ سوى فستانين اثنين فقط لا غير بسبب ضيق الحالة المادية ، وبدل أن ترتدي الحلي الذهبية ؛ ارتدت قطعة إسوارة بلاستيكية من المشفى كُتب عليها : " مريانا بنت أنطوان " !

❀ ❀ ❀

زراعة العقيدة ، سيد الشيخ قاسم

زراعة العقيدة أمر صعب جداً ، لكن اقتلاع تلك العقيدة بعد أن زرعت أصعب ألف مرة ، بل يكاد يكون مستحيلاً ، وهنا أقول أن عقيدة أبناء القسام زرعت بالفطرة الطبيعية التي كانت بوصلتها الإسلام والعزة ، فلم أرَ قسامياً واحداً طوال عملي الجهادي لا يقدم نفسه للشهادة ويتقدم للصفوف مثل أولئك القساميين .

طوال سنوات عمل هذا المقاوم معي كان بمثابة الدرع الحامي لي ، فلقد كان يحرص على أمني ويتبع كل الأمور التي قد أسهو عنها ، كنت محملاً بأمور عديدة متنوعة متشعبة من متابعة أمور المقاومة وعملياتها ؛ إلى تحديث وسائل تلك الخلايا المقاومة ؛ وصولاً للأمور التقنية عبر أجهزة الحاسوب التي كنت أبحر فيها – قرصاناً في الشبكة العنكبوتية– لعلي أجد ما ينفع المقاومة ، وبقدرٍمن المعلومات يسهل اختراقها وأرى ما بداخلها .

أما سيد فلقد كان يشاهد كل ذلك بصمت دون أن يسأل أي سؤال ؛ فلم أكن أدرك أن بين يدي معدناً نفيساً لا يقدر بثمن ! كان سيد الشيخ قاسم يعمل في مجال تركيب تمديدات الماء للمنازل ، ولم يكن له أي علاقة بتلك الأمور الإلكترونية والكهربائية التي كنت مشغولاً بها طوال وقت تواجدي ؛ خصوصاً في حالة عدم وجود عمل عسكري أقوم به .

حدث أن احتجت في إحدى العمليات لعدة عشرات من العبوات الناسفة ، فطلبت من

سيد أن يفعل مثلما أفعل ، لم يتردد ؛ بل بدأ على الفور يؤدي ذلك العمل بصورة مذهلة ، فأوقفته عن العمل وسألته كيف تقوم بتلك الأمور من لحام ووصل للقطع وتجميع لها ؟! كيف؟! قال : " لقد كنت بجوارك طوال عشرات جلسات التدريب التي كنت تدرب فيها المهندسين والفنيين على تلك الأمور ، وكنت أراقب وأشاهد وأقرأ ما كنت قد كتبته في كراسات تلك الدورات وأشاهد الرسوم الهندسية ، وهكذا حفظت الكثير منها ؛ وكنت أنشغل برسمها بشكل تفصيلي ، لأني كما تعلم كنت الشخص الوحيد الذي كان يُسمَح له بالتجول بحرية مطلقة معك ومع المتدربين ، ولقد كنت في بعض الأحيان بعد أن أنتهي من التدريب أقوم بإعادة الأدوات التي تدرب عليها المهندسون إلى أماكنها ، وهكذا تعلمت " .

في تلك اللحظة وعندما سمعت ما قاله توقفت عن صناعة ما كان بين يدي من عبوات ناسفة ، وبدأت بإعطائه دورة مكثفة استمرت عدة أيام وليالٍ ، تمكنت خلالها من صقل مهارات أحد أهم الفنيين ؛ بل أحد أهم المهندسين القساميين ، فلقد أصبح سيد القاسم بعد فترة التدريب يقوم بإعداد الكثير من العبوات متعددة الأغراض والأشكال !

لقد دربت العشرات من المهندسين الذين كان بعضهم قد أنهى دراسة الماجستير ويعد لدراسة الدكتوراة ؛ ولكن يشهد الله أن سيد الشيخ قاسم فاقهم سرعةً في التعلم وإتقاناً في صنع ما تعلمه !

لقد أكمل سيد القاسم من بعدي مشواره على درب مهندس القسام ، فصنع أقوى العمليات تقنيةً ، وأدار أفضل الخطط عسكرياً ، سيد الشيخ قاسم مهندس على الطريق !

وهكذا أقول أن صعوبة التدريب الذي تلقاه طوال تلك الأيام جعلت إدارته للمعركة سهلةً وبسيطةً ، صعب في التدريب سهل في المعركة ، وهكذا زرعت بجوار عقيدة القسام في قلب سيد القاسم علومَ هندسة القسام ، فلم يتمكن أحد من اقتلاعها أبداً ، بل قام ابن القسام بزراعة تلك العلوم والعقائد داخل صدور وعقول شباب الإسلام ورجال القسام .

❀ ❀ ❀

ترس ،، وتـــروس !!

في هذه الومضة أريد أن أعرض " آلة القسام " ، تلك الآلة التي كانت مليئة بتروس القساميين ، تلك التروس التي تمارس عملها بصمت وثبات واقتدار .

وهنا يا ابنتي الحبيبة ويا ملاكي الحارس يجب أن تعلمي أنني عندما قصصت عليك ما حدث من أمور وأحداث جرت خلال مسيرتي الجهادية لست سوى مجرد ترس صغير جداً جداً في تلك الآلة التي تحوي كثيراً من التروس ؛ التروس التي سطرت بعملها المتواصل بجد وصمت أروع صفحات المقاومة على تراب فلسطين ؛ كل فلسطين .

وهنا عندما أعرّج على اسم أحد تلك التروس القسامية ؛ فأنا أعرّج على ما قمت أنا به معه ، لا على ما قام به هو خلال مقاومته للعدو الصهيوني ، فعندما ذكرت المهندس أيمن حلاوة لم أذكر ما قام به بعيداً عني ، أو ما قام به منفرداً من أعمال مقاومة وأعمال جهادية ، فلقد قام هذا الشهيد المهندس أيمن حلاوة بعدد كبير من تلك الأعمال الجهادية ، بل قام بأحد أهم تلك الأعمال والعمليات وهي عملية "الدولفناريو" على شاطئ بحر فلسطين المحتلة ؛ تلك العملية التي قُتل خلالها العشرات وأصيب المئات ، عندما فجر الاستشهادي "سعيد الحوتري" نفسه بين الصهاينة عندما كانوا يلعبون ويسكرون في ذلك الملهى الليلي الذي يقع على شاطئ البحر ، بعد أن قام المهندس أيمن حلاوة برسم الخطة وإعداد المادة المتفجرة التي وضعت داخل طبلة عزف عليها الاستشهادي لحنه ، لحن المقاومة .

وما هذا إلا مثل بسيط جداً على تلك الأسماء التي جاء ذكر بعضها خلال كتابتي هذه الأوراق ، تلك الأسماء التي يحتاج كل اسم منها كتاباً ؛ بل كتباً خاصة لتروي سيرته الجهادية على طريق تحرير فلسطين ؛ كل فلسطين والقدس والأقصى ، ولذلك يجب أن تعلمي أن هناك العشرات بل المئات من مقاومين في آلة القسام الذين قاموا بأضعاف أضعاف ما قمت به ، لكنهم يا ابنتي صامتون ؛ منهم من كتب الله له الشهادة ؛ ومنهم من كتب الله له الأسر ؛ ومنهم ما يزال قابضاً على جمر المقاومة ، يقاوم ويرابط بصمت ، ولذلك آمل منك عندما تكبرين أن تسطري تجارب أولئك المقاومين القساميين في كتب ، لترى النور تلك السيرة الطيبة لأولئك الطيبين ؛ شهداء كانوا أو أسرى أو مقاومين .

تثور النار إن خنقت بالحطب * فكف لا يثور ابن القسام وقد غضب**

على دم شعب يسكب * ويحرق كل من للحق اغتصب**

نشر سير أولئك المقاومين هي ثورة لا تقل عن ثورات من يحمل البندقية ويقاوم بها ، فالكلمة الصادقة في هذا الزمان الصعب قد تكون أقوى من الرصاص وأشد تأثيراً من العبوات الناسفة .

واعلمي يا ابنتي أنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله عز وجل ، ولذلك فأنا أشكر كل من علمني حرفاً أو كلمةً ، كل من أمدّني برصاصة لأقاوم بها ، أشكر كل من قاتلت إلى جوارهم ، أشكرهم وأشكرهم وأتشرف لمجرد أني قابلتهم هناك في ساحات المعركة ، **واعلمي يا ملاكي الحارس أننا لا نختار المعارك التي نخوضها، بل المعارك هي من تختارنا .**

طـــي الجـــراح

اشتدت حملات المداهمة والاعتقال وأصبحت أكثر تركزاً على كل من يُعتقد أنه يمتُّ بصلة ما لي ، وخلال عدة أعوام اعتقل العشرات من مهندسي القسام ومن القادة الميدانيين لأولئك القادة والمهندسين ، كان هناك دائماً بديل يسارع أبو علي السلوادي إلى إيجاده ؛ وأقوم أنا بالتكفل بإعداده وتدريبه لكي ينخرط في ميدان المعركة .

أما من كان إيجادهم صعباً فهم المساعدون الشخصيون والمرافقون ، فلقد كنت أدير هذه الدائرة بشكل مغلق ، ولقد كان عدد من أولئك الأشخاص أمثال سيد الشيخ قاسم وأبو أحمد الخطيب قد أمضى برفقتي عدة سنوات ؛ ولذلك فلقد كان استبدال أي أحد منهم صعباً للغاية ولكن بسبب ارتباطهم المباشر مع مهندسي القسام والقادة الميدانيين – من أجل التنسيق بيني وبينهم – فقد أصبحوا مطلوبين لقوات الاحتلال بعد أن كانوا يقومون بكل نشاطاتهم السابقة بدون أن يكون الاحتلال قد صنفهم على أنهم ممن يعملون في مجال المقاومة ، وهكذا أصبح كل عناصر الدائرة الأمنية المحيطة بي مطلوبين مطاردين ، فكان لزاماً حمايتهم ومتابعة شؤونهم على أكمل وجه ، ولأن الأحداث كانت متسارعة ؛ فلقد كان مطلوباً مني أن أبدأ بالبحث عن أماكن جديدة للإقامة غير تلك القديمة التي تشكل خطراً على أمني ، ولأني كنت آنذاك منشغلاً بزوجتي وأطفالي الثلاثة فلقد كانت الأمور أكثر صعوبة بسبب اضطراري للخروج كثيراً لتوفير مستلزمات المعيشة من طعام وشراب ؛ وخاصة أن زوجتي قد مرضت بعد ولادتها لابنتي صفاء،

وظلت راقدةً في السرير عدة أسابيع كنت خلالها أرعى أطفالي وأوفر لهم احتياجاتهم اليومية .

في ظل تلك الظروف ؛ وبعد خمسة وثلاثين يوماً من ولادة زوجتي ورقودها المتواصل على سرير الشفاء ، اضطررت لإيجاد مسكن جديد يكون أكثر ملاءمةً من مسكني الحالي الذي كنت قد أطلت الإقامة فيه .

خلال عمليات البحث عن شقة سكنية تم رصدي من قبل أحد العملاء وهو صاحب مكتب عقارات وتأجير شقق ، بالطبع لم يتعرف علي من خلال اسمي ولكنه استطاع التعرف علي من خلال ملامحي ومن خلال صورة التقطت لي من إحدى الكاميرات الموجودة داخل مكتبه والتي عرضها هو على جهاز الشاباك فتعرفوا على شخصين ، وهكذا تم استدراجي من خلال موعد أتفق عليه لمشاهدة إحدى الشقق وكان ذاك الموعد بجوار بلدية البيرة .

في صباح يوم ٥/ ٣/ ٢٠٠٣م توجهت إلى المشفى صباحاً لمعالجة ابنتي تالا التي كان واجباً عليها مراجعة طبيب العيون ، ولأن والدتها كانت هي الأخرى راقدة بفراش المرض ، ولأن كل المرافقين الذي كانوا يعملون معي أصبحوا مطلوبين للعدو ؛ فلقد اضطررت للذهاب بنفسي لمعالجتها .

لم يكن الطبيب المعالج قد حضر في موعده المحدد ، وقيل لي أنه بعيادته التي كانت بإحدى المشافي الخاصة وأنه سوف يحضر خلال ساعة أو أكثر ؛ ولأن هناك موعداً مسبقاً مع صاحب مكتب تأجير الشقق ؛ فلقد اضطررت إلى أخذ ابنتي معي لذلك الموعد على أمل مشاهدة الشقّة والعودة ثانياً إلى مشفى العيون.

وما إن وصلت إلى موقف سيارات بلدية البيرة ونزلت من السيارة وعلى يدي ابنتي ، حتى هاجمني كلبان بوليسيان ، فقمت بالإسراع بقذف ابنتي تالا داخل السيارة وإغلاقها عليها محاولاً التصدي للكلبين اللذين كان أحدهما قد بدأ ينهش قدمي والآخر بدأ ينهش السترة الشتوية التي كنت أرتديها ، قبل أن أتمكن من التخلص من الكلبين البوليسيين كانت مجموعة من قوات الاحتلال تحيط بي مصوبةً بنادق رشاشاتها نحوي ، فألقوني أرضاً وكبلوني وعصبوا عيني واقتادوني إلى سيارة كانت قد توقفت حولهم أثناء مهاجمتهم لي .

تم اقتيادي إلى معسكر تحقيق ومعتقل عوفر المجاور ، قبل الوصول تم رفع الغطاء عن رأسي مع إبقاء العصبة على وجهي ؛ وما إن توقفت السيارة داخل المعسكر حتى تم إزالة العصبة عن وجهي لأجد نفسي أمام شخص مقنع نظر إلي وهز رأسه ، كان ذلك المقنع هو صاحب مكتب تأجير الشقق ، لقد عرفته ؛ فلقد كان قصيراً سميناً يرتدي حذاءً ذا كعب عالٍ نوعاً ما ، ثوانٍ معدودة تلك التي لزمته للتعرف علي قبل أن يهز رأسه المقنع ؛ وثوانٍ هي أيضاً تلك التي لزمتني لأقرر رغم أني مكبل مقيد أن أقوم بإعدامه .

لقد أقسمت أن أول عمل سوف أقوم به هو إعدام ذلك الحقير العميل ، لم تكن عندي مشكلة بإعدامه ، دائماً كانت المشكلة تكمن بالطريقة التي سوف أعدمه بها ، فما لا تعلمينه يا ابنتي هو أني على مدار أعوام من المقاومة قمت بإعدام عدد من العملاء ؛ كنت أقوم بإعدامهم بالطريقة التي تتناسب مع جريمتهم التي ارتكبوها ، فمن تسبب بسقوط قذيفة أدت إلى استشهاد مقاوم ؛ كنت أحول جسده إلى أشلاء بعد إلقائه داخل حفرة تكون قد لغمت بالمواد الناسفة ،

فلا يعقل أنه بعد أن تسبب ذلك العميل بتحويل جسد أحد المقاومين إلى أشلاء جراء إحدى قذائف العدو التي وجهت بناء على معلومات ذلك العميل أن لا أقوم أنا بعد ثبات التهمة عليه بتحويل جسده إلى أشلاء ، فالعين بالعين والسن بالسن ؛ والبادئ أظلم ، وأنا لست ممن يعفون عن العملاء الظالمين .

أما العملاء الذين كانوا يتعاونون مع المحتل دون أن يؤدي تعاونهم وخيانتهم إلى استشهاد أحد من أبناء المقاومة فلم أقسم بقتلهم ؛ بل بفضحهم وكشفهم وتحويل حياتهم في الضفة والقدس إلى جحيم ، مما كان يدفعهم إلى الفرار إلى أحضان العدو ؛ إلى مدينة داخل أراضينا المحتلة عام ١٩٤٨م .

لم أتطرق بإسهاب لموضوع العملاء لأنه موضوع أمقته جداً ولا أحبه ، وكنت غالباً مرغماً على التعاطي مع قضاياهم القذرة بحق أبناء المقاومة وأبناء فلسطين ، فالعملاء هم أقذر ظاهرة عرفتها فلسطين جراء الاحتلال الصهيوني ؛ سواء عملاءه المباشرين أو عملاءه بالوكالة ؛ قادة أجهزة أمن السلطة الذين كانوا يعلقون أوسمة العمالة متفاخرين بها راقصين على دماء شهداء فلسطين ، قبل أن أعود لما قد حصل معي سوف أعرّج قليلاً لما حدث معك بعد أن ألقيتك داخل السيارة وأغلقت الباب عليك .

وما إن تم اقتيادي بعيداً عنك حتى تم فتح السيارة والإلقاء بك أرضاً في موقف سيارات بلدية البيرة ؛ وقاموا بأخذ سيارتي معهم ظناً منهم أن سيارتي تحتوي على ما يمكن أن يفيدهم بخصوص قضيتي .

قيل لي بعد فترة من اعتقالي عبر أحد المحامين الذين كانوا يتابعون قضيتي من الناحية القضائية أنه بعد أن ألقى جنود الاحتلال بك أرضاً جاء عدد من موظفي البلدية الذين شاهدوا عملية مداهمة قوات الاحتلال لي واعتقالي ؛ فقاموا بأخذك محاولين التعرف على شخصيتك وهويتك ، وعندما سألوك قلت لهم أن اسمك " لينا أشرف " وأنك من مدينة نابلس ، فلقد كان هذا هو آخر اسم قد أطلقته عليك بعد اسمك السابق الذي كان "سارة" .

لم يتمكنوا من تحديد هويتك بأي شكل من الأشكال ، لأنه لم يكن أحد قد شعر بغيابك أو افتقدك ؛ فأنا معتقل وأمك مريضة ترقد على سرير الشفاء ، وكنت قد تركتها نائمة هي وأخوك أسامة وصفاء عندما تركنا المنزل صباحاً .

وهكذا بقيتِ يا ابنتي حتى ما بعد ساعات المساء دون أن يتم التعرف على هويتك ، فلم يكن عمرك قد تجاوز الأعوام الأربعة بعد ، ولأنك أمضيت ما يزيد عن نصف تلك الأعوام الأربعة متنقلةً من مسكن لآخر ومن مدينة لأخرى فلقد جعلت كل من يحاول سؤالك عن أي معلومة سواء بالاسم أو مكان الإقامة يدخل بمتاهة لا يمكنه الخروج منها بأي نتيجة .

بدأت المحطات الفضائية والتلفزيونية بنقل ما حدث ونقل صورك في تقاريرها الإخبارية ، ولحسن حظك فلقد تعرفت عليك جدتك رغم أنها لم تَرك منذ عامين وأكثر ؛ إلا أنها عرفتك وصاحت بأخوالك : "هذه تالا ، اذهبوا للمدينة وأحضروها فوراً ، هذه حفيدتي " .

وصل أخوالك بعد منتصف الليل إلى مدينة رام الله حيث كنتِ قد نُقِلتِ إلى هناك ؛ إلى أحد منازل أبناء العائلة الذي أخذك من بلدية البيرة بناء على طلب أخوالك منه ، ثم تم نقلك إلى

القرية إلى أحضان جدتك ، وطبعاً لم تفلح جدتك وأخوالك بالحصول على أي معلومة منك سوى وصفك لما جرى معي من اعتقال وكلاب وكلاب وكلاب .

كانت زوجتي متعودة على غيابي لساعات طويلة عن البيت ؛ إلا أن هذا الغياب يكون عادة غيابي أنا وحدي وليس غيابي مع أي أحد من أطفالي ، قلقت وانتظرت ، فلقد كانت تعلم أن عليها الانتظار في حالة غيابي المفاجئ لمدة أربع وعشرين ساعة قبل أن تعود إلى القرية ، ولأن قلقها قد زاد ، قامت بتشغل جهاز التلفاز متابعةً نشرات الأخبار حيث علمت عن اعتقالي وأسري لدى قوات العدو الصهيوني .

انتظرت حتى صباح اليوم التالي وعادت إلى القرية مع ما بقي معها من أبنائي وهم أسامة والرضيعة صفاء ؛ صفاء التي كان عمرها يوم اعتقالي خمسة وثلاثين يوماً ، ما إن وصلت زوجتي القرية حتى داهمت قوات الاحتلال القرية ، ومنزل عمي والد زوجتي ، واعتقلوا كل من كان هناك ، وتعرضت زوجتي للتحقيق المستمر ؛ لكنهم لم يتمكنوا من معرفة أي شيء منها ولم يحصلوا على أي معلومة مفيدة ، فزوجتي لم تكن تعلم أصلاً عن أي عمل من الأعمال التي كنت أقوم بها ، فلقد كانت مهتمة برعاية الأطفال طوال مدة وجودها مطارَدة عندي ، ولم تكن قد شاهدت طوال تلك المدة وجه أي أحد من مساعديَّ نساء كانوا أو رجالاً !

ولذلك بعد انتهاء التحقيق معها تم إطلاق سراحها ، وهكذا عاد اسم تالا لتالا ، ولم تقتنع هي بهذا الاسم وتسلّم به إلا بعد عدة شهور من تكرار مناداتهم عليها بهذا الاسم ، ورغم مرور أعوام على عودة اسمها الحقيقي لها إلا أنها تفضل اسم "لولو" ؛ وهو اسم الدلع الذي كنت

أناديها به عندما كان اسمها "لينا" ، وظل اسم لولو اسماً رديفاً لاسمها حتى اليوم .

أما جميلة الجميلات صفاء فلقد ولدت تحت اسم "مريانا" فلقد أصبح اسمها صفاء ، واعتادت عليه منذ عودتها إلى قرية بيت ريما ، أما أسامة أو إلياس أو خميس ، فقد استرجع هو الآخر اسمه بشكل أسرع من تالا ؛ لأنه كان لا يزال صغيراً ولأننا كنا نناديه داخل المنزل باسم الغضنفر ، فلقد بقي الغضنفر لقباً له حتى يومنا هذا وأسامة اسماً له .

❀ ❀ ❀

وبالعودة لما جرى معي بعد اعتقالي ، اعتقالي الذي عبرت عنه بعدة جمل متشابكة ، فقلت واصفاً حالتي الجسدية والنفسية في ذلك اليوم الأول الذي تواصل ليصبح سلسلةً من الأيام التي توالت على مدار ستة أشهر من التحقيق المتواصل ، بيوم بدأ ولم ينتهِ إلا بانتهاء الأشهر الستة أو المئة وثمانين يوماً التي جمعت لتصبح يوماً ؛ يوماً واحداً .

قلت في ذلك اليوم :

مكبل اليدين والقدمين معلق * لسقف الزنزانة من المرفق**

فجر رصاص بلا شمس تشرق * وبلا أمل وعون تشرق**

احتلال تجبر وقلب المنطق * سؤال واستجواب ثم تحقيق**

جسدي يتألم وسياطهم كالحريق * عظام تكسر وعظام تسحق**

بحري هائج وفكري غريق * قلبي يتألم وأشعر بالضيق**

أسرت وعذبت ولم يسقط البيدق * وصعدت روحي من شدة الألم للخالق**

لا ؛ روحي لم تصعد للسماء * لم أستشهد وما زلت بالمحقق أحملق**

نعم، لم أستشهد ؛ ولكني كنت بين الوعي واللاوعي ، أصارع ألم جسدي لكي لا تكسر إرادتي ولكي لا يتدمر ما قمت به طوال عدة أعوام في صفوف المقاومة من بنيان مع رجال المقاومة ؛ رجال القسام .

كنت أدرك أن مثل هذه اللحظة قد تأتي ، فلم يكن أمام من يقاوم الاحتلال سوى الشهادة أو الاعتقال أو النصر ، النصر كان صعباً لظروف عديدة لا داعي للتطرق لها ولا لأسبابها ؛ تلك

الأسباب التي جرت على أهل فلسطين النكسة والنكبة وأوسلو والكثير غيرها ، ولذلك فلقد كنت مستعداً للشهادة عبر إخلاص النية لله وحده ؛ لله عز وجل ، فالمقاومة لم تكن لا لسلطة ولا لجاه ؛ بل كانت لله ؛ لرب العزة ؛ رب فلسطين ، الذي كتب علينا الجهاد طريقاً لتحرير المقدسات .

أما الاعتقال فلقد كنت مستعداً له من عدة نواحٍ وبطرق مختلفة كان أولها جسدياً ، فرغم انشغالي طوال الأعوام الماضية بأعمال المقاومة إلا أني كنت ما أزال أحافظ على لياقتي البدنية، فلقد واصلت تدريبي وتقوية عضلاتي لاستعمالها في خوضي المعارك المسلحة ، أو في خوض معركة كسر الإرادة في زنازين التحقيق ، سواء كانت تلك الزنازين لدى الصهاينة أو لدى أعوانهم من أجهزة أمن السلطة .

أما من الناحية الأمنية ؛ فلقد كانت استعداداتي تنقسم إلى قسمين :

أولها : تلك الخبرة الكبيرة والمعرفة التي تعلمتها من أبي علي السلوادي وسيد القاسم وأيمن حلاوة وغيرهم من رجال القسام الذين كانوا قد مروا بتجارب اعتقال سابقة ومتكررة على مدى الأعوام السابقة ، فمن خلال تجاربهم الاعتقالية تمكنت معهم من وضع تصور لما سوف يحدث معي أو مع أي أحد من المقاومين إذا ما تم أسره ، ولذلك قمنا بإعداد كراسة يشرح بها الإخوة أبو علي السلوادي وسيد القاسم وأيمن حلاوة كيفية إدارة المعركة الاعتقالية ، وهكذا ورغم عدم اعتقالي لدى الصهاينة من قبل ؛ إلا أني كنت أحمل في عقلي تصوراً كاملاً لما سوف ألاقيه عندهم ولكيفية ردود فعلي على ما سأواجَه به هناك في أقبية التحقيق .

ثانيها : ولقد كان من نوع آخر فضلت أن أقوم به لأسباب تطورت وتعددت ، فلقد كنت على مدى أعوام أقوم بجمع كل المعلومات التي قد يكون أدلى بها بعض المعتقلين الذين تربطهم بي علاقة عمل جهادي من خلال معلومات حصلت عليها بعد أن أنهوا التحقيق وتم وضعهم داخل السجون ، أو من خلال المعلومات التي حصلت عليها عبر المحامين الذين كانوا يملكون لوائح الاعتراف ولوائح الاتهام التي قُدمت إلى المحاكم الصهيونية ، وبذلك كنت وبنسبة تجاوزت التسعين بالمئة أعلم ما تم تداوله عني تحديداً ، وأعلم التهم التي سوف توجه إليّ ، تلك التهم لم تعنني أبداً ؛ فأنا مهندس مقاوم .

أما ما كان يهمني ويعنيني فهو عدم كسر "حوار الصمت" بما يخص العمل الكلي لكتائب الشهيد عز الدين القسام ، وبما يخص خطتها المستقبلية وأهدافها ؛ أو مخازن السلاح والذخيرة ومستودعات المواد المتفجرة ، ذلك ما كان يعنيني أولاً .

أما ثانياً : فهم المقاومون الذين عملوا معي ولم تكن هوياتهم قد كشفت لدى قوات العدو ، تلك الهويات التي أقسمت برب العزة على أن أستشهد قبل البوح بها وقبل تمكين العدو من أولئك القساميين ؛ أمراء الظل ، أو أن أمكن العدو من الحصول على رصاصة واحدة من رصاصات القسام .

على هذه الأرضية التي بنيتُ عليها إستراتيجيتي توكلت على الله ، أما الصهاينة فلقد أوكلوا أمرهم إلى الشيطان وبنوها على أرضية ما يُعرف باسم "التحقيق العسكري" ، التحقيق العسكري هو التحقيق الذي يمارس به الصهاينة كل الأساليب اللاإنسانية من أجل انتزاع

المعلومات من المعتقل ، طوال شهرين من التحقيق معي بمدينة القدس بمركز التحقيق في سجن المسكوبية ، كُسر ما كُسر من عظامي ووصلت حالة جسدي إلى حافة الانهيار ، لكن الله عز وجل أعلى وأقوى ، الله رب القدس حيث كنت أعذَّب في تلك الأقبية المظلمة على يد طغاة الزمان ومدنسي المكان ، مدنسي بيت المقدس ومدنسي أجساد الأسرى والمعتقلين .

ما أن انقضى الشهران حتى تم اصطحابي إلى مركز تحقيق آخر لا اسم له ولا عنوان على الخارطة ، مركز يصطلح على تسميته بالمركز "السري الخاص" ، سري وخاص !

فعلاً هناك بدأت جولة جديدة استمرت عدة أشهر كنت خلالها ميتاً يحمل بقايا أنفاس ، أنفاس أجراها الله في جسدي حارماً إياي من الشهادة التي كنت أطمع بها ، فالشهادة كانت هدفي وغايتي التي كنت أسعى إلى الوصول إليها عبر تحدي أولئك الصهاينة البرابرة ، لم أستشهد وأخذت على نقالة إلى زنزانة بسجن في القدس مرةً أخرى ، هناك في القدس عدت أشلاء إنسان ، محمولاً على نقالة لا ينقصها سوى كيس أسود من تلك الأكياس التي توضع الجثث داخلها !

أُلقيتُ في تلك الزنزانة نحو أسبوعين أو أكثر، ثم تم نقلي مرة أخرى إلى شمال فلسطين ؛ إلى معتقل "مجدو" ، هناك وصلت ففكوا الرباط عن عيني ثم وضعوني بلا قيد في أحد الأقسام، هناك للمرة الأولى منذ ما يزيد عن ثلاثة أشهر ونصف ، رأيت الشمس للمرة الأولى ، وأيضاً رأيت أناساً غير المحققين الصهاينة ، لكن أولئك الناس كانوا ذئاباً بأجسام بشر .

ما إن وصلت إلى ذلك المعتقل وإلى ذلك القسم الذي أُعد خصيصاً لي ولاستقبالي ،

حتى وجدتهم يصلون فتوضأت وأسرعت لأقف خلفهم لأصلي ، لأصلي ولم أُصَلِّ ، لم أُصَلِّ بنية الجماعة بل صليت بنية الفرد ، رغم أن إمامهم كان طويل اللحية وكبيراً في العمر ؛ إلا أني لم أرتح له ؛ لأني عندما دخلت لأصلي لمحت عينه ترقبني أثناء توجهي من الباب لأقف في آخر صف ، فلقد كان باب خيمة الصلاة يقع على يمين الصف المقابل وهو يمين الخيمة ، لم أرتح لنظراته ولا لطريقة أدائه الصلاة ، فلقد كان هو و من معه من المصلين مثل العازفين بجوقة موسيقية مدربة أحسن تدريب ؛ لم يكن بينهم أحد نشاز ؛ كانوا مثل الرجال الآليين ، ذئاب بأجساد رجال ، ورجال أشباه آلات تتحرك بتناغم مستفز !

ما أن انتهيتُ من الصلاة حتى كان العديد منهم قد مر من أمامي متجهاً إلى باب الخيمة للخروج ، بقي إمامهم الأكبر مع اثنين من "مرتدي" اللحى ، تلك اللحى التي حاولوا من خلالها إخفاء حقيقة هويتهم عني ، فسلموا علي ما أن انتهيتُ من الصلاة وعرفوني بأنفسهم على أنهم فلسطينيون من مناطق فلسطين المختلفة وعلى أنهم مقاومون وثائرون .

قدموا لي الطعام ، الكثير الكثير من الطعام والحليب ، وهكذا مضى اليوم الأول ؛ صلاة بنية الفرد وطعام عن مئة فرد .

في اليوم الثاني قدم لي إمامهم الأكبر حقيبة مدعياً أنها قد وصلت من الشيخ "جمال أبو الهيجاء" آمر المقاومة القسامية بمدينة جنين ، وقد كان الشيخ جمال أبو الهيجاء قد اعتقل منذ نحو عام ، ما لم يكن يعمله إمامهم الأكبر الذي قدم لي الحقيبة على أنها من الشيخ جمال هو أني كنت أعلم أن الشيخ موجود في سجن آخر أكثر حراسة ، سجن مبني من الإسمنت والحديد ،

وليس هنا بسجن الخيام ؛ لأن الصهاينة كانوا لا يضعون في سجن الخيام "مجدو" أو سجن خيام "عوفر" إلا من أتموا حكمهم واقترب موعد إطلاق سراحهم ، فكيف يكون أبو الهيجاء معتقلاً في مجدو ؟! وكيف أصلاً يتم إحضاري ؛ إحضار عبد الله البرغوثي الذي تُوَجَّه له تهمٌ لا تعد ولا تحصى إلى سجن ضعيف الحراسة وأشبه ما يكون بالمنتزه المليء بالخيام ؟!

فتحت الحقيبة فوجدت بها رسالة من جمال أبو الهيجاء ، كان الشيخ كما يدعي قد كتبها لي ، كتب بها كلمات للاطمئنان على أحوالي ووضع في نهايتها عدداً من أرقام الهواتف التي تخص قيادات سياسية مثل الأخ خالد مشعل ، والأخ عبد العزيز الرنتيسي وغيرهما ، أسماء كثيرة وأرقام أكثر ! لكن لم يكن بين تلك الأسماء والأرقام رقم من أرسل إلي الحقيبة ؛ رقم الشيخ جمال أبو الهيجاء ! ولم أسأل أحداً عن رقمه حتى لا يشكوا أني قد أصبحت أشك بهم .

ظللت عدة أيام على حالي أصلي منفرداً وأنا خلف إمامهم دون أن أثير شكوكه ودون أن يدري أو يعلم ، وكنت أنام كثيراً بسبب التعب الذي كان قد لحق بي خلال جولتي بالتحقيق في المسكوبية بالقدس وبالمركز السري ، وكنت أتناول الطعام والشراب كلما تمكنت .

كان هناك صوت يواصل تذكيري أني سوف أخوض جولة ثالثة من التحقيق ؛ فلا يمكن أن يكون الصهاينة قد استسلموا بهذه السهولة ، فهم لم يتعبوا رغم أنهم سهروا الليالي في جلسات التحقيق ؛ إلا أنه كان يتم تغيير طاقم المحققين بين الحين والآخر ، أما أنا فلم يتم تغييري طوال تلك الأشهر .

مضت عدة أيام أظنها قد تجاوزت الأسبوع ، أتى بعدها إمامهم الأكبر ليسألني إن كان قد

فرغ شحن بطاريات الهواتف النقالة التي معي ؛ تلك التي أرسل منها جمال أبو الهيجاء اثنين وليس واحداً ، أحدهما موصول عبر شبكة الاتصال الفلسطينية وهو للاستعمال داخل فلسطين كما كُتب لي ، والهاتف الآخر مشبوك عبر أحد شركات الاتصال الصهيونية وهو للاستعمال الخارجي ، فقلت لا أدري إذا ما كانت البطاريات قد فرغت أم لا لأني لم أستعمل تلك الأجهزة أصلاً ، وقبل أن يسأل عن السبب قلت له أني كنت قد نسيت وجودها أصلاً بسبب تشوش أفكاري وتعب جسدي ، أما الحقيقة فلقد كانت أني أحاول أن أكسب أكبر وقت ممكن في هذا المكان ؛ لعلي أسترجع بعضاً من قوتي الجسدية لجولة تحقيق شعرت بأنها قادمة لا محالة .

في أحد أركان إحدى الخيام جلست لكي أجري أول مكالمة لي بمجرد أن تركني إمامهم وذهب لحاله ، اتصلت بزوجتي فردت علي ؛ قلت لها : **" لا وقت عندي ، قد ينتهي شحن البطارية ، فلا تتحدثي واتركيني أتحدث أنا "** ، فطمأنتها على أحوالي وحاولت إراحة نفسيتها جراء فراقي ووقوعي في الأسر ، طلبتُ منها أن تعطيني ابنتي تالا ؛ تالا ملاكي الحارس ؛ وبدأت بالتحدث معها ، كانت تسألني باستمرار عن مكان وجودي ؛ فكنت أرد عليها : **"أنا عند أصحابك وأصدقائك"** ، فكان من حولها يطلبون منها إعادة السؤال عن مكان وجودي ، فكنت أكرر : **" أنا عند أصحابك ؛ أصحابك الحلوين "** ، وأقفلت السماعة مودعاً .

أصحاب تالا "الحلوين"

كانت تالا تملك عصفورين من العصافير المغردة ، بقيت محتفظة بهما طوال أعوام وجودها مطارَدة معي ، وعندما كان أحد تلك العصافير يموت ، كنت على الفور أقوم بشراء عصفورين آخرين جديدين وإعادة العصفور الحي الذي بقي وحيداً لصاحب محل بيع الطيور.

وهكذا وطوال أعوام كانت تالا لا صديق لها إلا عصافيرها المغردة التي كانت تقوم بإطعامها كل يوم ، ما أن أنهت تالا مكالمتها معي حتى ذهبَت إلى قفص العصافير لتبحث عني بداخله ، فلقد قلت لها أني عند أصحابها "الحلوين" جالس بداخل القفص وأتناول طعامي ، ولأن غالبية أفراد أسرتي هم أسرى سابقون فلقد انتبهوا لمعنى ما قلته لتالا وعلموا أني موجود في قسم العملاء والجواسيس ؛ ذلك القسم الذي يطلق عليه فلسطينياً اسم "العصافير" ، أو غرف العار .

بعد ذلك تحدثت مع والدتي ووالدي بعمّان مكالمة طويلة محاولاً طمأنتهم علي وعلى أحوالي ، ولم أعاود استعمال الهواتف النقالة مرة أخرى طوال الأيام التالية ، خوفاً من أن يخطئ أو يزل أحد من أبناء عائلتي بأي كلمة أو معلومة فتضر هذه الكلمات إخوتي بالمقاومة ، ما أن اكتمل الأسبوع الثاني ؛ حتى تم إخباري من قبل إمامهم الأكبر أني سوف أُنقل إلى قسم آخر .

عند أولئك العملاء وطوال تلك الفترة قُدّم لي أفضل الطعام ولم يسألني أي أحد عن أي شيء ، فلقد كان المطلوب منهم توفير وسائل الراحة لي ، وجعلي أتحدث عبر الهاتف ظناً منهم أنهم سيتمكنون من تعقب تلك الكلمات فيصلوا إلى شيء ما ضد المقاومة ورجالها .

ارتديت حذائي ، وأعطيتُ الحقيبة وما بداخلها إلى إمامهم وكبير جواسيسهم ، وغادرت ذلك القسم متوجهاً إلى الباب الخارجي ، هناك كان ينتظرني عدد من جنود قوات الاحتلال الذين قاموا بتقييد يدي وقدمي ثم وضعوا عصبة على عيني واقتادوني إلى عربة انطلقت مسرعةً إلى مدينة القدس ، إلى مركز تحقيق المسكوبية .

هناك بدأت معي جولة جديدة من التحقيق لم تختلف عن الجولات السابقة ، إلا أني تعرضت في أول يوم لتلك الجولة إلى كسر في ذراعي ، كان الدافع الذي يحرك الصهاينة ويدفعهم لفقد أعصابهم مرده أن رجال كتائب الشهيد عز الدين القسام وعلى رأسهم أبو علي السلوادي وسيد القاسم قاموا بعدة هجمات على قوات الكيان الصهيوني الغاصب عقاباً لجرائمهم التي لم تكن تتوقف أبداً ضد كل فلسطيني ؛ مدنياً كان أم عسكرياً ؛ مقاوماً كان أم مسالماً ، مما جعل قادة الشاباك الصهيوني تصاب بهستيريا عمياء أرادت من خلالها كسر إرادتي وجعلي أنهارُ كاشفاً أسرار المقاومة وخباياها .

في تلك الفترة ومن شدة العذاب ؛ أقسم أني شاهدتُ الموت وتحدثت معه وجهاً لوجه ، لامسته وعرفته عن قرب ، صادقت الموت وصادقني مشفقاً علي مما حل بي من عذاب ، قدر الله لي أن لا أستشهد ، وقدر الله لملك الموت ألا يقبض روحي .

بعد مضي شهرين على هذا الحال وتلك الليالي الطويلة ؛ كان قد مضى على وجودي في الأسر وداخل أقبية التحقيق قرابة ستة أشهر وعدة أيام ، تم اقتيادي بعدها من مدينة القدس الحبيبة إلى صحراء فلسطين الأسيرة ؛ إلى صحراء النقب ؛ إلى سجن بئر السبع ، هناك وصلت مودعاً القدس ، مودعاً إياها والكلمات تدور داخل رأسي دون أن تتمكن شفاهي من النطق بها من شدة التعب وألم الجسد ؛ فقلت مودعاً مناجياً القدس الحبيبة وأسوارها الشامخة وظلال أسوارها ؛ أسوار البراق ؛ وأسوار الأسر ، قلت :

يا ظلال القدس قومي وناجني * أسوارك باتت صامتةً لا تحاكيني**

غاضبة مني لأني من الأسرى المساجين * أم لأني لم أستشهد مع المجاهدين**

بربك كبري وعلّي الأذان * ولا تخضعي للظلم والاستبداد والطغيان**

حزين أنا لأجلك يا مدينة الرضوان * يا مدينة المحبة والعفو والغفران**

ألست درة تاج الأرض وفلسطين * وأسوارك معراج سيد المرسلين**

ألم يستشهد لأجلك الاستشهاديون * ألم يضحوا بالروح والغالي والثمين**

فلماذا أنت صامتةٌ وأنا حزين * فالنصر قادم بإذن رب العالمين**

فكل محتل لأرضك لترابك فان * وسوف تبقي شامخةً بلا هوان**

فأنت مدينة العدل والميزان * وأنت جوهرة الدر المكنون**

فتراب القدس ليس مجرد طين * فالقدس مباركةٌ وما حولها بالقرآن**

فأنت أول قبلة المؤمنين المصلين * وأنت يا قدس ثاني الحرمين الشريفين**

يا ظلال القدس يا جنة الجنان * أسمعيني صوتك وأسمعيني الأذان**

فالنصر قادم والعدو المحتل فان *** فقلوب رجال القسام مليئة بالإيمان

يا ظلال القدس أسمعيني الأذان *** يا ظلال القدس أسمعيني الأذان

فأنا الأسير الشهيد الولهان *** لسماع صوتك من خلف القضبان

أنا من لا يبيع ولا يهادن *** أنا مَن بدين رب القدس دان

أنا مَن بدين رب القدس دان *** يا ظلال القدس أسمعيني الأذان

وصلت إلى سجن بئر السبع وتم وضعي في قسم العزل الانفرادي ، كان قسماً يحتوي على عشر غرف يسكن في كل واحدة منها أسير أمني أو سجين مدني ، هناك في تلك الغرف المعزولة عن باقي أقسام السجن ؛ كان يوجد شيخي ووالدي الغالي عليَّ وعلى قلبي الشيخ جمال أبو الهيجاء ، وكان بإحدى الغرف الأخرى يقبع صديقي العزيز أسدُ مقاومي بيت لحم أحمد المغربي وحيداً ، وعدد آخر من ضمنهم مروان البرغوثي أمين سر حركة فتح والذي كان قد مد لي يد العون عند خروجي من معتقل جهاز الأمن الوقائي في الضفة الغربية ، مد لي يد العون رغم صعوبة وضعه لكونه كان مطارداً مطلوباً من قوات الاحتلال .

بعد عدة شهور أمضيتها بين أولئك الأسرى المقاومين الأبطال ، تم اقتيادي للتحقيق مرة أخرى ، هذه المرة لم يكن السبب يدور حول نشاط كتائب القسام ؛ بل يدور حول اختفاء عميلهم الذي أرشدهم إلي ؛ صاحب مكتب تأجير الشقق ، مكثت في التحقيق أسبوعاً واحداً لا أكثر ولا أقل ، ولكني لم أعد للقسم الذي كان فيه إخوتي المقاومون ، بل تم وضعي بقسم خاص لا يحتوي إلا على غرفة واحدة فقط لا غير ؛ اسمه "قسم الحراسة المغلقة" ، غرفة يوجد داخلها عدة كاميرات مراقبة ، تراقب كل حركة أقوم بها وكل نفس أتنفسه ، مكثت في تلك الغرفة عاماً وثمانية أشهر لم أر خلالها أي مخلوق سوى ضابط صهيوني واحد وثلاثة جنود كانوا هم المكلفين بحراستي ومتابعة أموري .

كنت عندما اعتقلتُ قد قررت أن أقتل ذلك العميل ولكني كنت حائراً حول طريقة قتله ، لكني خلال أشهري الست في داخل أقبية التحقيق توصلت لأفضل طريقة ممكنة لعقابه وأجعل

من موته عبرةً ودرساً لكل من تسول له نفسه أن يتعاون مع العدو ويبيع شرفه ودينه ، ذلك العميل كان يقيم بالضفة الغربية تحت ستار أنه صاحب لمحل ومكتب تأجير العقارات ؛ فلقد كان من أبناء منطقة أخرى ومدينة أخرى لن أذكرها ، أما طريقة موته فسوف أذكرها .

فبعد التحقيق معه بمجرد أني قمت بإرسال اسمه لإخوتي رجال القسام ، اتضح أن له دوراً في تصفية اثنين من أبناء أحد التنظيمات الفلسطينية بمدينة رام الله ، وما إن أكمل الإخوة تحقيقهم معه حتى أرسلوا لي وأنا في سجني نتيجة ذلك التحقيق منتظرين ما سوف أصدره من حكم على ذلك العميل الذي سلمني لقوات العدو من جهة والذي أدت عمالته لاستشهاد عدد من الثوار .

طلبت من الإخوة أن يبحثوا عن أحد مواقع البناء الجديدة التي تقرر إنشاء مجمع أو بناية ضخمة عليها ، فوجدوا المكان ، وهناك تم دفن العميل حياً تحت الإسمنت الذي بُنيَت عليه أساسات ذلك البناء ، كم أكره العملاء ! وكم أرغب بحرقهم جميعاً حتى أطهّر المجتمع الفلسطيني منهم !

ما إن مر العام والأشهر الثمانية حتى عدت إلى نفس القسم الذي كان فيه الإخوة المقاومون والثائرون ، لكني لم أجد أي أحد منهم ؛ فلقد انتقل بعضهم إلى أقسام السجن العادية وتم نقل الآخرين إلى أقسام للعزل في سجون أخرى ، في ذلك القسم وجدت تسعة مجانين ؛ مجانين بكل ما تحمل الكلمة من معنى ، كانوا طوال الليل لا يكفون عن الصراخ وعن سكب الماء خارج غرفهم ، مكثت على هذا الحال نحو عام أو يزيد قليلاً ، بعدها بدأ عدد أولئك

المجانين التسعة يتناقص شيئاً فشيئاً ؛ ويحل محلَّ كل من يغادر منهم أحدٌ من الإخوة المقاومين .

كان أول الواصلين "أحمد المغربي" صديقي العزيز وابن أمير مدينة بيت لحم ، ثم "حسن سلامة" ، ثم وصل عدد آخر من الإخوة الأسرى الأمنيين .

طوال تلك الفترة الممتدة من خروجي من التحقيق كنت أعمل على عدة أمور من أهمها تعلم وإتقان اللغة العبرية قراءةً وكتابة ، ولقد حققت هذا الهدف خلال بضعة أشهر ، وأصبحت أقرأ الصحف والكتب العبرية .

أما الهدف الثاني فلقد كان إعادة ما كنت قد خسرته من كتلة عضلية أثناء أشهر التحقيق الستة بسبب قلة الحركة وانعدامها ؛ وبسبب القيود والسلاسل وبسبب قلة الطعام ، إن كان ما يُقدَّم يسمى طعاماً أصلاً .

ولقد تمكنت بحمد الله من استعادة صحتي الجسدية إلى ما كانت عليه سابقاً إن لم يكن أفضل ، فلقد كنت أقوم بالجري لمدة ساعة كاملة كل يوم ؛ وهي الساعة التي يسمح لي بالخروج بها من الزنزانة ، كنت أمارس تمارين الضغط وتمارين تقوية عضلات المعدة ، وباختصار شديد كنت أقرأ كل أنواع الكتب التي يمكنني الحصول عليها ، وكنت أحافظ على جدول تدريبي الرياضي بدون أن أسمح لأي عامل خارجي بالتأثير على ذلك الجدول ، وبعد ذلك بدأت محاكمتي وتم الحكم علي بسبعة وستين مؤبداً وخمسة آلاف ومئتي عام !!

في ذلك اليوم الذي حكم علي به حُكم على قلعة جدي بأن تُفجَّر ، ففجروا القلعة

وأصبحت كومة من الركام ، فصعد أبنائي إلى أعلى الكومة وغرسوا عليها علماً فلسطينياً وآخر أخضرَ حمساوياً كُتب عليه : " الله أكبر " .

لم أحزن يوماً من الأيام على أي شيء قمت به طوال حياتي ، سواء كانت تلك الحياة قبل أن أدخل فلسطين ، أو بعد أن دخلت فلسطين إلى قلب المقاومة ؛ إلى قلب العزة والكرامة .

خلال الأعوام التي قاربت العشر التي مرت علي وأنا معزول في زنزانة العزل الانفرادي ، تم اقتيادي للتحقيق عدة مرات كانت كلها عادية ، بلا طعم ولا لون ، أما ما ضايقني وجعلني أستشيط غضباً كان عندما عرض علي محققو الشاباك الصهيوني تسجيلاً مصوراً لاعترافات أدلى بها مقاومان قساميان كان بادياً عليهما التعذيب الشديد والإعياء ، لم يكن هذان المقاومان معتقلين عند أجهزة المخابرات الصهيونية ولم يعذبا هناك ، بل كانا قد خضعا للتحقيق على يد قوات أمن سلطة محمود عباس ، تلك السلطة التي عرفت أسفل درك من دركات الفساد والإفساد حتى أصبحت العمالة في نظر قادة أجهزتها الأمنية عقيدة زرعت وتغلغلت عميقاً أكثر مما يتصور البعض .

ابنتي الحبيبة وملاكي الحارس ، اعلمي وليعلم كل من تقرأ عيناه هذه الكلمات والومضات أن الحياة واحدة وأن الرب واحد ، **فإما عيشة تتوجها الكرامة والعزة ؛ وإما موتة يقصد بها وجه الله عز وجل لترتقي بعدها الروح صاعدةً لله رب العزة .**

إن فلسطين بأقصاها وقدسها تستحق كل ما قدمت لها ولأجلها ، ويشهد الله إذا ما بقي لي نفس ؛ فلن أبخل به على وطني السليب ، فليس بعد القدوس إلا القدس ، وليس بعد القدس إلا القسام .

القسام ، رجال عملية الوهم المتبدد ، ذلك الوهم ؛ وذلك الحلم الذي حلمت أن أصحو منه محرراً حراً ، حلمت أن أعود إلى كومة حجارة قلعتي ؛ إلى أطفالي ؛ إلى زوجتي وأبي وأمي؛ إلى كل من أحبوني من إخوة وأخوات ، الوهم المتبدد الذي جعلني أعيش أملاً وحلماً ، استيقظتُ من الحلم وعاد مَن عاد مِن الأسرى المحررين إلى أهله وذويه ، عادوا إلى غزة الحصار والانتصار ؛ عادوا إلى القدس وإلى الضفة ، وغادر مَن غادر مبعداً إلى بلاد الغربة ، أما أنا عبد الله البرغوثي ؛ أما أنا حسن سلامة ؛ أما أنا إبراهيم حامد ؛ أما أنا جمال أبو الهيجاء ؛ أما أنا عباس السيد ؛ أما أنا محمود عيسى ؛ أما أنا أحمد المغربي ؛ أما أنا بلال البرغوثي ؛ أما أنا وائل العباسي ؛ أما أنا فبقيتُ مقيداً ملقى في زنزانة العزل الانفرادي حتى يومنا هذا ، فذهب الوهم المتبدد أدراج الرياح ، وبقيتُ بل بقينا تحت جبروت السجن والسجان ، ألم يعد هناك معتصم نعصتم به بعد الله يفك أسرنا ويكسر قيدنا ؟! أم أصبحنا نحيا في دنيا الوهم والأوهام المتبددة ؟!

اكتب يا قلمي من داخل أسرك ، اكتب من داخل عزلك ، فأنت قلم حر بيد أسير حر ، اكتب بالله عليك اكتب ، فأنا أشعر بالضيق ، اكتب يا قلمي ، اكتب أستحلفك بالله أن تكتب :

اكتب بحبرك عني وعبر * فزنزانتي خرساء صامتةٌ كالقبر**

اكتب ولا تخف فأنت حر * أما أنا أسير أتجرع المر**

اصنع من حبرك كلمات الحرية النصر * لتحلق عالياً في سماء الحرية وتطير**

اصنع القصة واكتب عني الخواطر * واروِ حكايات كل ثائر**

فالقيد يكبل معصم الأسير وأنا أسير * أما معصمك فلا يكبله إلا الضمير**

فخط بهذا الدم الانتصار * واجعله ساطعاً في السماء كالبدر**

أمنتك بالله بالكتابة أن تستمر * وأن تقول وتجول بالمعركة ولا تفر**

اكتب بحبرك عني وعبر * فزنزانتي خرساء صامتةٌ كالقبر**

فأنت قلم حر لايشترى بدينار * ولا يباع بسوق الصهاينة والكفار**

فحبر حريتك عليهم خطر * وحريتك لنا لفلسطين هي الظفر**

فاظفر للحق والدين وخاطر * واحرق بحبر دمك المستعمر**

وبالعميل ألحق الذل والعار * وبكل معتد محتل غدار**

فأنت اليوم فارس المنبر * وأسد أسود عرين الغضنفر**

ادحض كذبهم وأظهر التزوير * وأطفئ نار كفرهم الشرير**

فما عدت اليوم طفلاً صغيراً * فحلق في السماء كالصقر وطِر**

واحذر شباكهم شباك الغدر * واحذر من كل عميل حقير سمسار**

وكن بيد المجاهد كالخنجر *** وكَسيْفِ قسامي مجاهد يبتُر

وابقَ على درب الحق سائر *** وبقدوم النصر يهلل ويبشر

اكتب يا قلمي ، اكتب ولا تتوقف ، اكتب أنت حر ، أنت عبد الله غالب البرغوثي ، زوج فائدة وأبو تالا ؛ وأبو أسامة ؛ وأبو صفاء ؛ وأخو رائف ؛ وأخو محمد وريم وفائدة ؛ وابن غالب؛ وابن صفاء ؛ وابن القسام ، اكتب يا قلمي وعبِّر فأنا ابن الإسلام والقسام .

أوراق كتابي هذا الذي كتبت تحت عنوان :

مهندس على الطريق ،، أمير الظل

قد شارفت على الانتهاء ؛ بل انتهت ، وحان وقت طي صفحات الكتاب وصفحات الجراح ، أما قصتي ؛ لا ؛ لم تنتهِ بعد ؛ فإن للحكاية بقية باقية ، وإن ما بقي أكثر وأكبر ؛ بل أعمق بكثير مما كُتبَ ورُوِيَ ضمن صفحات هذا الكتاب ..

كتاب (مهندس على الطريق ،، أمير الظل)

كتب هذا الكتاب في زنزانة العزل الانفرادي ،،

داخل معتقل رامون في الجنوب الفلسطيني ،،

وقريباً من حدود مصر العربية ،،

مصر الثورة والثوار ،،

كتب بعد الربيع العربي ،،

الربيع الذي آمل أن يتحول لعاصفة على الصهاينة ...

عبد الله غالب عبد الله الجمل البرغوثي

بعض ما كتبه المجاهد البطل عبد الله البرغوثي مؤخراً

الحبيبة والبنين

عينيّ تبكي وقلبي حزيـن — على فراق الحبيبة والبنين
فائدة التي الفؤاد والياسمين — أنت شمعة قلبي السجين
بوجهك البسمـة كل حين — وفي قلبك حبي الدفـين
فأنتِ حياتي وماء العـين — يا وردتي وأجمل الرياحين
سيبقى حبي لك قوياً متينا — مهما فرقنا العــدو اللعين

أسير بلا كفن

عبد الله يا ساكن الوجدان — يا صلاح هذا الزمان
اليوم بتّ فارساً بلا حصان — أسيراً بسجن بلا عنوان
شهيـداً حيـاً بـلا كفــن — بزنزانة العزل العفــن
صابراً على المصائب والمحن — رغم ظلم العدو اللعين
يا من بـذل الغالي والثمـين — من أجل أن يرفع الجبين
ويمشي منتصب القامة لا يلين — كهزيج الرعد بسماء فلسطين
عزيز النفس كالتين والزيتون — كصخرة الأقصى ومعراج السنن
أبا أسامة يا وحشاً لا يلين — ستبقى منارة المجاهدين

لا تنسوا المهندس في عتمة عزلته ، فلقد كان فيكم للحرية عنواناً

أعلم أنني اليوم أعيش في ظلمة زنزانة العزل الانفرادي منذ سنين طويلة ، طويلة جداً ، حتى أنني لم أعد أحصيها ..

ولكن أذكر قبل دخولي إلى العزل أنني عشت ستة أشهر في زنازين التحقيق شاهدتُ خلالها الموت وكلمته وكلمني ، لمسته في لحظات عديدة ، ولكن تغلبت عليه بعون الله القادر القهار ..

ولكن أذكر أنني عشت قبل ذلك أجمل وأروع أيام عمري ، فلقد رفعت رأسي عالياً ورفعت راية التوحيد والجهاد أعلى وأعلى ، في زمن الذل والهوان ..

غداً سوف تأتي قطرة زيت لكي تضيء سراج الأقصى وقناديل القدس ..
غداً قادم ، فلا تقنطوا من رحمة لله ..
فهو الرحمن الرحيم ، وهو الغالب الجبار القادر على كل شيء ..

المهندس عبد الله غالب البرغوثي
أبو أسامة
أمير الظل ،، أمير الصمت ،، أمير الطريق